حليم يوسف

20.7.2017

خوف بلا أسنان

الترجمة عن الكردية: فواز عبدي

رواية | دار نون للنشر



حليم يوسف

خوف بلا أسنان

الترجمة عن الكردية: فواز عبدي

رواية | دار نون للنشر

خوف بلا أسنان

المؤلف: حليم يوسف / المترجم: فواز عبدي / عنوان الكتاب: خوف بلا أسنان
طُبع في المملكة الأردنية الهاشمية / الطبعة الأولى: 2015.
لوحة الغلاف: رياض نعمة / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-91-87373-38-1



دار نون للنشر

رأس الخيمة / دولة الإمارات العربية المتحدة / ص.ب ٤٠٠٤٤
عمان / المملكة الأردنية الهاشمية / ص.ب: ١٤٧٦ / تلفاكس:0096264625290
www.dar-noon.com / noon@dar-noon.com

العين الثالثـــــة

لقد أجهزت أحصنة السنوات الماضية من العمر على جسدي الحزين. لا زالت آثار العضّ باقيةً لا تزول. ومع الألم الذي خلفته آثار ذلك النهش في روحي المتعبة، سأقضي السنوات الباقية من العمر.

كتابة على شاهدة قبر كاتب ميت

الخوف، عندما يفرد جناحيه في الروح، يعقد لسان القلب ويخرسه. عندها إما أن يلتحف المرء بالصمت، وإما أن يستسلم للطوفان فيبوح بكل شيء، ولتقم القيامة. لا أدري فيما إذا كان مجدياً أن أبوح بكل شيء أم لا.

أعتقد أن أمواج الكلام تستطيع أن تغسل حديد الروح من الصدأ، وتفتح الباب أمام إعصار القصص المنسية. ليس في قامشلو وحدها، بل في سائر أنحاء الوطن ارتفع غبار الصمت حتى العنق. عليّ أن أعترف بأني لا أستطيع أن أكون عين أيٍّ كان، لأني فقط عين موسى القامشلوكي، لست عينه اليمنى ولا اليسرى، إنما أنا تلك العين التي ترى، وتنطق بدل أن تبكي أو تضحك أو ترفّ. لكن من قال بأن البوح عمل بسيط؟ فلأبدأ إذنْ من الصمت.

منذ بضع سنوات انتشر مرض غريب بين سكان المدينة، ولا يستطيع أحد إيقافه. كانوا يطلقون على هذا المرض اسم الخانوق، وعلى ما أذكر فإن موسى قد أصيب به في طفولته، كان يسعل سعالاً جافاً أشبه بالصفير،

وكانت الدموع تملأ عينيه نتيجة آلام ذاك السعال. كانت أمه تقول بأن دواء الأطباء لا يفيد، علينا أن نأخذه إلى حسن تلّيسو، يجب أن يذبحه حتى يتخلص من هذا السعال. كانت فرائص موسى ترتعد حين يسمع كلمة «الذبح»، ويعمل ما بوسعه كيلا تسلم أمه رقبته لسكين تليسو! لكن، لا البكاء ولا صراخ طفل كانا قادرين على حمايته من حكمة الكبار وفلسفتهم. في النهاية أخذوه إلى تليسو، الذي مرر الطرف غير الحاد من سكينه عدة مرات على رقبته وكأنه يذبح الصغير. بعد ذلك الذبح بفترة قصيرة شفي موسى، وتغيرت نظرته إلى عملية الذبح التي يقوم بها تليسو. وراح يقول لنفسه إذا ما تكررت إصابته بهذا المرض فإن أول ما يفعله هو الذهاب إلى تليسو ليقوم بذبحه. أما الآن فلا تليسو على قيد الحياة، ولا الذبح يفيد أهالي المدينة. لأن الكل -وحتى الأطباء- قد أصيبوا به. لذلك فقدوا أصواتهم، وهم على وشك أن يتبادلوا إشارات الصم والبكم فيما بينهم ليستطيعوا التخاطب والتفاهم. لا أحد يستطيع إيصال صوته إلى الآخر. كما أن الصوت الذي يرتفع يصبح وبالاً على صاحبه. وهذا ما سهّل عمل كتبة التقارير، فما أن يشعروا بحركة تصدر عن شخص ما حتى يُكتَب التقرير مباشرةً، ويُرفع ليبقى صاحب الصوت أمام ثلاثة خيارات لا غير:

إما السجن وكمّ الفم، أو الفرار إلى خارج الوطن، وإما الانتحار.

موسى، مدرس مادة التاريخ، كان أحد الذين حاولوا التغلب على هذا المرض، وحاول أن يشرح الدروس لطلابه بصوت عالٍ. منذ مدة وهو يعاني صعوبات جمة، فالسعال يجعله لا يميز بين التاريخ الرسمي، المدون في الكتب المدرسية، والتاريخ اللارسمي، والذي لم يكتب، وبذلك لا يستطيع شرحه للطلاب. حاول موسى جاهداً حتى النهاية كي يمنع المرض من أن يصيب طلابه، لكن في النهاية أصيب به هو أيضاً وراح يعاني من سعال شديد وقاس.

آذار على الأبواب، موسى يريد أن يبشر طلابه متفائلاً، بأنه مع الربيع تنفتح الطريق أمام التخلص من هذا المرض القاسي. نصف العلاج يكمن في مقاومة الجسد وفي الأمل بالشفاء- يقول- وهذا سهْل مع مجيء آذار القادم. مع أن كل آذار جديد يجلب معه هموماً جديدةً، إلا أنه يبقى مناسبةً لرؤية وجه الربيع ولو مرةً في السنة.

الكثير من طلابه من المهتمين بالرياضة، والراغبين في فوز فريق مدينتهم، كانوا يقولون، قريباً ستجري مباراة بكرة القدم بين فريقنا الجهاد وفريق ضيف. كيف سيشجعون فريقهم بهذه الأعناق المتعبة وبهذا السعال القاسي؟! مع أن موسى لم يهتم يوماً بأخبار الرياضة، إلا أنه كان يناقش طلابه ما يجول في رؤوسهم من اهتمامات.

ذلك اليوم كان يفكر في وضعه. من أين أتى به الزمان، وإلى أين؟ مِنْ ذلك الطفل الكردي الذي كان يقف بذهول أمام معلم يتحدث العربية، لا يفهم ما يقوله المعلم، ولا يعلم لم لا يتعلم لغته الأم، إلى معلم اللغة العربية الذي كان الأطفال الكرد يرطنون أمامه بين كردية البيت وعربية المدرسة ودوائر الدولة. مفردات اللغتين تتحول في رؤوسهم إلى حساء مغلي من لغة جديدة لا هي العربية ولا هي الكردية. حساء مكون من ماء التسلط وعدس العبودية، ويغلي على نار الظلم.

ألم تلك البقعة الحمراء التي ظهرت في مؤخرته، وأصبحت كدملة، بدأ يشتد. وكلما صادف تمثالاً أو صورةً للرئيس كان الألم ينتشر في عظام جسده، ويضيق نَفَسه ويكاد يختنق. في ذلك اليوم كان عند أحد أصدقائه في عامودا. وكان المساء قد حلّ عندما خرجا رغبةً في المشي. في مدخل المدينة كان هناك تمثال كبير للرئيس الخالد رافعاً يده لاستقبال القادمين إلى المدينة. جلسا –بعفوية- بجانب السور المحيط بالتمثال. فجأةً أقبل نحوهما رجل كبير في العمر، وتحدث إليهما بكردية مفككة:

- ممنوع، إنه ممنوع!..

استغرب موسى وصديقه، وسألا معاً:

- ما هو الممنوع؟!

أجاب الرجل الخائف، وكأنه مسؤول كبير:

- الجلوس عند تمثال الرئيس أو الاقتراب منه ممنوع. هنا لا أراقب المسجد فقط، إنما عليّ حماية التمثال أيضاً. هل فهمتم؟ إني حارس.

راح موسى ينظر بعين إلى الرجل الغاضب، وبالعين الأخرى إلى الرأس الحجري لرئيس البلاد، وشيئاً فشيئاً راحت يداه تتجهان إلى ردفتي عجيرته، حيث الوجع الكبير الذي عجز الأطباء -ومنذ سنوات- عن فهم كنهه. مع بداية إحساسه بهذا الوجع ذهب إلى طبيب، وبعد معاينة عامة أجابه الطبيب بأن لا شيء يخيف، ثم ناوله عنوان طبيب نفساني. بعد أن خرج موسى من عيادته مزق الورقة، وقال لنفسه بخوف، أتمنى ألا يكون بدايةً لطلوع ذيل، ومد يده اليسرى، دون أن يراه أحد، إلى ما تحت ثيابه فاحصاً مكان الوجع، وعاد إلى البيت جائعاً. فكرة تأخذه، وأخرى تعيده إلى صندوق سنواته الغابرة، وطنين كلمات أمه توجع أذنيه للمرة الألف:

- يا بني، ها قد تجاوزت الثلاثين من العمر! ألن تتزوج؟ أتريد أن تموت دون زواج؟!

ولأنني لن أكون قادراً على رؤية خيالاته وذكرياته، سأترككم معه. سأبقى دوماً مفتوحة، سأستمع معكم حيناً، وحيناً سأنظر إلى أين سيأخذكم؟ ثم نرى ما الذي خبأه القدر لنا وله؟ كنت أعلم أنه سيبدأ بهذه الكلمة؛ الخوف..... ها هو يبتدئ بالخوف.

قلب من بلاد الخوف

فلأمــت، أنــا ابــن الخــوف، لــيرضى الأب و... ليعــش الرئيــس إلى الأبــد.

الخوف، مرةً أخرى الخوف.

دخلت المطبخ، أيضاً كان الطعام قد احترق. بدأت رائحة الطعام المحترق تتغلغل إلى روحي. كأن الجن يعيشون معي، وقبل أن أصل إلى المطبخ، يعمدون إلى حرق الطعام. تركت كل شيء في مكانه واتجهت إلى غرفتي جائعاً. نتيجة الألم الحاد انبطحت على الأرض. وساورني خوف ورحت أفكر في تلك البثرة في مؤخرتي. أتمنى ألا تصيب حتى الذئاب على قمم الجبال. ظهرت بثرة في ملتقى أعلى الردفين، تتسع رقعتها يوماً بعد يوم. المشكلة أنني لا أستطيع البوح لأيٍّ كان حول مصيبتي هذه. أمس حملت المرآة الصغيرة ووقفت أمام المرآة الكبيرة لأرى بوضوح مكان الألم. كانت هناك بقعة حمراء في أعلى الردفين. هذا لا يهم. لكن خوفي هو أن تتحول هذه البقعة الحمراء إلى ذيل، وتتحول معها كل مخاوفي وأحلام اليقظة إلى حقيقة.

إذا ما حدث شيء من هذا القبيل، فإن السبب في كل هذا هو سمكو.

سمكو الطفل الذي علمني اللعب بأذيال الحيوانات المقطوعة.

ربما يثأر الله منا على تلك الأيام التي علاها الغبار. كان سمكو حافياً على مدار الأربع والعشرين ساعةً في اليوم. بيده كان يخلع حذائي من قدمي، ويخبئه، ثم يحمل قطعاً حديديةً حادةً ودواء. وتبدأ المتعة الكبرى في البحث عن الضحايا من الحمير والأحصنة والنعاج والعنزات بعيداً عن أعين الكبار. كنت أربط قائمتي الحمار الأماميتين وأبطحه أرضاً، ثم أربط

قائمتيه الخلفيتين كطبيب مختص، فيحمل سمكو قطعه الحَديدية وخلال لحظات يقطع ذيله، وحتى يوقف نزيف الدم كان يبدأ بمداواته. كان يرش «الدواء الأحمر» مكان الجرح، ثم يرش الكحول، يضمد الجرح بحرفية ثم يترك الحيوان المسكين.

امتلأ المكان بالحمير مقطوعة الأذيال.

قليلاً ما كنا نحصل على ذيل حصان، لأن الخيول قوية وعنيدة، كنا نأخذ من ذيلها أطول الشعر، ثم نأتي بتنكة مدورة، نربط الشعر إلى التنكة نصنع منها طنبورة. كان سمكو يعزف على تلك الطنبورة العجيبة، أما أنا فكنت أرغب في الغناء. كم كان الغناء عذباً بعد ذلك التعب والكد في صنع تلك الآلة الغريبة. تلك الآلة التي طلبتُ مئات المرات من والدي شراءها لي، دون أن أحظى بجواب. كان سمكو يملك صوتاً جميلاً يتألم مع آلام الحيوانات مقطوعة الأذيال وأنينها. قوة خفية إلهية كانت تجذبنا إلى حفلات العذاب هذه والأغاني والرقص... لم يكن الكبار يسمحون لنا بالمشاركة في حلقة الرقص في الأعراس، لأن رؤوسنا ما كانت تصل إلى مستوى سرتهم، كما كانوا يقولون. إذاً علينا أن نخلق أفراحنا بأنفسنا، لذا اخترنا ركناً ميتاً من حوش قاسمو وفي كوخ مهجور أقمنا معرضاً للأذيال المقطوعة. زيّنّا الجدران الأربعة بالأذيال القصيرة والطويلة والمتنوعة. ابنه قادو هو من وجد لنا هذا المكان، وأصبح شريكنا في عالمنا الخاص هذا.

كان قادو عدواً لدوداً للكلاب والقطط، يباغتها من الخلف وينقض عليها بجرأة تفوق جرأتنا في الاقتراب من الأحصنة التي لا تكف عن الصهيل والحمحمة في ذلك العراء الساخن والمغبر كقلوبنا الملتهبة. جلس سمكو في وسطنا، ينظر بنشوة إلى الأذيال الكثيرة المعلقة فوق رأسه والمتأرجحة في الهواء وعلى الحيطان. كان منتشياً باعتباره الأسبق في هذه الفكرة الجهنمية التي جندنا أنفسنا لها طوال الوقت حتى اجتاحت عوالمنا المنفتحة على آخرها

أيادي الكبار بجرنا إلى المدارس.

لقينا في الأيام الأولى آلاماً في الدروس، بسبب اللغة التي ما كنا نفهم منها شيئاً، أصعب بكثير من تلك الآلام التي كانت تعاني منها تلك الحمير التي كنا نرميها أرضاً ونقطع أذيالها. الهمهمة التي كانت تجول في صدورنا، لو سمعت لكانت أعلى من تلك التي كانت تصدرها تلك الكلاب والقطط التي كنا نشحذ السكاكين لقطع أذنابها دون رحمة. في الدرس كان وضعي أشبه بوضع تلك القطة التي تدوس على ذيلها وتجبرها على الصمت!

كانت لغة المعلم غريبة. تخرج الأصوات من فمه بطريقة مضحكة.

وحين كنا نضحك، كان يؤنبنا، يشد آذاننا، ويبربر صارخاً فينا بكلمات غير مفهومة. تطير الجُمَل من فمه متلاحقة سريعة. كنت أعلم أنه يوجه إليّ أسئلة، لكن ما هو الجواب؟ الله أعلم. بكيت في اليوم الثاني حين أجبرني والدي على الذهاب إلى حفلات التعذيب، والتي كانت تسمى «الدروس».

- عليك أن تتعلم لغتهم يا بني، كي لا تبقى حماراً كوالدك.

لم أعد أصدق أن أرى نهاية هذا الوقت الصعب، لأرمي الملابس المدرسية والكتب في حوش الدار، وأركض حافياً مع سمكو وقادو إلى العراء نحو الآفاق المفتوحة وأذيال الحمير. بعدها كنا ندخل كوخنا المليء بالأذيال الرائعة. سعادة غامرة كانت تملأ قلوبنا الصغيرة في عالمنا الخاص هذا الذي شيدناه بعرق جباهنا. ازدياد عدد القطط والكلاب والحمير مقطوعة الأذيال في سائر البلد نشرت العديد من الأسئلة. لم تكن المسألة بحاجة إلى كبير عناء ليستدلوا على مكاننا. فجأةً هاجم الكبار كوخنا المليء بالأذناب المتنوعة. وخلال دقائق قضوا على ما تعبنا في بنائه سنوات، وهرب كل منا حافياً في اتجاه، ليس من أجل الصيد هذه المرة، لكن خوفاً

من عقوبة الكبار. خوفي من والدي جعلني ألا أعود إلى البيت تلك الليلة. يومها كان قادو الوحيد الذي وقع في أيديهم. ربطوه من قدميه إلى سقف الكوخ، وهو يصرخ ويحلف بأغلظ الأيمان على أنه لن يقطع أي ذيل بعد اليوم. حقيقةً فقد وفى بعهده، وتحول شيئاً فشيئاً إلى إنسان رقيق. ما عاد يُرى في يده غير القلم والأوراق البيض.

بعد سنة، عوقب ثانيةً لأنه لم يكن يرسم غير القطط والكلاب والحمير مقطوعة الأذيال.

أعادتني أمي إلى البيت كي لا أغيب عن المدرسة، بعد أن عاهدتْ على ألا يمسني والدي، شرط ألا أعود إلى هذا العمل الشائن. هكذا تركْنا سمكو وحيداً يمارس عمله، والذي كان جاهزاً دوماً لقطع أذيال مخلوقات الله البكماء الخرساء.

الآن، وبعد مرور كل هذه السنوات، أسأل نفسي: ترى، أهذه البثرة في مؤخرتي نتاج تلك السنوات؟ هل يثأر الله مني بسبب أعمالي تلك؟

إلى الآن لا أعرف سبب تلك العداوة مع المصابيح التي كانت تزين شارعنا؟ تلك المصابيح التي كانت تسعد الكبار. كنا نتسابق أنا وسمكو وقادو في كسرها، وما أن تسقط واحدة على الأرض وتتناثر قطعاً صغيرةً حتى نطير فرحاً. ما الذي فعلته هذه المصابيح المسكينة حتى نحطمها بكل هذه السعادة المصحوبة بالرقص والغناء؟ إذاً بإمكاننا أن ندع الناس في الظلام، ونخبئ جسد هذا العالم الذي يقف ضدنا في ظلام دامس. لكن، لا أعلم كيف سأتخلص من هذه البثرة في مؤخرتي، وكأن كل شخص يدس يده ويلمس مؤخرته مخافة أن يكون قد نبت له ذيل. في هذا البلد الذي ملك الخوف فيه حتى الحجارة والصخور، يبدو أنني، ومنذ أكثر من ثلاثين سنة، أعيش وسط غبار هذا الخوف ودخانه.

أنا ابن الخوف.

الخوف من انفجار لغم في الحدود التي تحتضن بلدتنا الطينية. البلدة المرمية ما بين «سَرْخَتْ» و «بِنْخَتْ»... من الأعلى تسقط علينا لعنة حكومة سرخت من فوهات بنادق الجنود؛ هؤلاء الجنود الذين ينظرون باتجاهنا مراقبين أربعاً وعشرين ساعةً في اليوم. ليلاً، يراقبون من علبة معدنية مربعة مرفوعة على أرجل حديدية، ونهاراً ينزلون إلى حفر مربعة الشكل، مستعدون دوماً للقتل. وما بين محرس وآخر هناك ألغام وجنود. أما لعنة حكومة بنخت فقد تَحُلُّ علينا في أية لحظة، في لحظة ضحك غير مناسبة، أو أن نبكي في عيد وطني أو قومي، أو أن نمشي في مسيرة ولا نحمل صورةً للرئيس، ولا نقول بأننا مستعدون أن نقدم دماءنا وأرواحنا رخيصةً من أجله.

- بالروح، بالدم، نفديك يا رئيس!

هذا عدا عن لعنة الوالد الذي يفرح دون سبب، وكذلك يحزن دون سبب، والمطلوب منا دائماً أن نفرح أو نحزن لنكون أولاداً مطيعين. احترنا في إرضاء الأبَيْن؛ في الشارع والمدرسة «أبينا» القائد، وفي البيت أبينا زوج الأم، هذا الأب المستعد دوماً لمعاقبتنا بدءاً من الضرب إلى طردنا من البيت وحتى ضرب الأم إذا ما طاردنا ولم يستطع اللحاق بنا. ومن ناحية أخرى كان قد انتشر الخوف في كل الأنحاء من تماثيل الرئيس، وكذلك من صوره التي كانت تزين الدكاكين، الشوارع، الزوايا، الحيطان، زجاج السيارات والشاحنات وأبواب المنازل. تتسابق المدن والقرى والمناطق في إطلاق اسمه المقدس على الغابات، الشوارع، المحطات، والأماكن الحديثة، وفي إطلاق أسماء أبنائه على أبنائهم. ذبح أحد جيراننا بقرته، قرأ عليها «المولد»، ودعا كل موظفي البلدية والسجل المدني في المدينة، ليغير اسم ابنه الوحيد، ويطلق عليه اسم ابن الرئيس. الجار المسكين انتظر

طويلاً لتضع زوجته مولوداً يطلق عليه اسم ابن الرئيس، إلا أن انتظاره باء بالفشل، لذا اضطر إلى تغيير اسم ابنه الوحيد المدلل، والذي لن يؤدي الخدمة العسكرية مادام وحيداً. سُرَّ الوالد، لكن سروره لم يدم. ابنه الوحيد المدلل والوسيم زرع خوفاً بلا حدود في قلب والده. فقد كان يغيب طويلاً عن البيت. ثم تناهى إلى سمعه لقب يُطلق على ابنه «زوجة عنتر». عنتر زعران معروف في المنطقة، بسكينه المسننة يبث الرعب في قلوب الكبار والصغار. يهجم على خصمه، يمسكه، ويشبعه لكماً وركلاً، وحتى يشفي غليله لا يقتل خصمه، بل يدعه وسط الجروح والدماء. كما يفتخر عنتر بكثرة آثار الجروح على جسمه. ولقب «زوجة عنتر» يسيء إلى ابن الرئيس كونه يحمل اسمه. ما كان يخيف الأب أن يسمع رجال الرئيس بأن (عنتر ينكح ابن الرئيس) وأن يكون السبب ابنه الوحيد. لذا ربط الأب ابنه في الدار، وحمل مسدساً، لقّمه ووضع إصبعه على الزناد مخاطباً إياه:

-اسمعني يا عديم الشرف! قسماً برب العرش السابع، إذا ما أشيع عنك كلام من هذا القبيل ثانية، لن أكتفي بقتلك، في هذا المسدس طلقتان، سأقتلك بطلقة وبالثانية أقتل نفسي! هل فهمت يا حمار يا ابن الحمار؟!

تهالك الأب المسكين عند قدمي الابن المذهول باكياً متحشرجاً في حسرات خائبة على ابن سخر لتربيته كل حياته لكي يكون قدوةً للآخرين، ضحى من أجله بكل حياته في سبيل أن يراه كبيراً، ضحى ببقرته في سبيل أن يحمل اسم ابن الرئيس الخالد. هذا الرئيس العظيم الذي يزور الناس في منامهم كل ليلة، لأن صوره وتماثيله النصفية تملأ كل زاوية في الوطن. ملايين الناس قد حفظوا شكل رأسه، أنفه، عينه، ذقنه ورقبته. حفظوا دقائقها مع أن أحداً لم يره عن قرب. كل مشاكل وقضايا الشعب تحل عن طريق قصر الشعب. هذا القصر المبني في أعلى قمة جبل لا يصلها

الشعب إلا بالحوامات. كل شيء يحلعن طريق تقارير «رجال الشم». هؤلاء الرجال منتشرون في الأرض والسماء وما بينهما.

إننا خائفون مما قمنا وما نقوم وما سنقوم به.

إننا نخاف منهم، ومن بعضنا.

مخافة أن يزيد عدد المخبرين عن سكان البلد، فقد راح كل شيء يسبح بحمد الرئيس وبعصره الذهبي. يوم بدء هذا العصر المهم في تاريخ البلد عيد، في المدارس يختلط الحابل بالنابل، يدخل المعلمون من غرفة إلى أخرى يخرجون التلاميذ والطلاب إلى الشوارع، وعلى مدى اتساع الوطن، آلاف الحناجر تفدي بدمائها وأرواحها الرئيس المقدس.

صبيحة ذلك اليوم، اجتمع المعلمون حول المدير الحزبي في المدرسة واستمعوا إلى أوامره، وانتشروا بين التلاميذ المجتمعين في باحة المدرسة. كان بينهم المعلم الأحدب صاحب الصوت القوي، المختص برفع الشعارات وامتطاء أكتاف كبار الحجم من التلاميذ. كان يرفع قبضته إلى الأعلى ويقول: «عاش الرئيس» وأولاد الرئيس، وأجداد أجداد الرئيس! آلاف الحناجر الصغيرة كانت تردد ما يقول دون أن يفهموا شيئاً. امتطى المعلم الأحدب كتفي أحد الطلاب، وعاد إليه صراخه بحراً من أصوات الطلاب.

- بالروح بالدم نفديك يا رئيس!

في وسط الشارع كانت أرتال التلاميذ تتتالى، وعلى الجانبين كان الناس يتفرجون. فجأةً انقطع صراخ المعلم الأحدب وسقط عن الأكتاف. وبدل الشعارات راح يطلق الشتائم، لم تبق شتيمة إلا ووجهها إلى الطالب المسكين الذي سقط تحته. اختلطت الشعارات بالأعضاء الجنسية لوالدي الطالب:

- يا بن القحبة! يا بن الشرموطة! ما دمت لا تستطيع حملي لم تجعل

من نفسك محمد علي كلاي وتحملني؟!

تصادمت أمواج الصغار، حاول المعلم الأحدب جاهداً ليخلص نفسه من بين أمواج الأحذية، لكن سقوطه فتح باباً كبيراً أمام الصغار للتخلي عن الجدية والخوف. أحدهم امتطى المعلم الأحدب، واعتلى الثاني كتفه، وركله الآخر ركلةً وهرب. وسط هذه الضجة الغريبة، سقطت صورة الرئيس، -المثبتة على العصا التي كان قادو يرفعها- على الأرض بين أقدام الصغار الذين لم يأبهوا بها وهي تتجعلك بين الأقدام بسبب انشغالهم بمعلمهم ذي الحنجرة الذهبية، الذي شق حنجرته وهو يهتف بحياة الرئيس. تمَلّك المعلمين خوف كبير حين رأوا صورة الرئيس بين الأقدام. مدير المدرسة الذي يرتدي بذلةً رسمية، حمل الصورة ومسحها بثيابه النظيفة باحثاً عن حاملها. وبعد بحث طويل أمسك قادو من أذنه وأخرجه خارج المسيرة، أخذ منه العصا التي بقيت دون صورة وبدأ بضربه، على يده، رأسه، مؤخرته ووجهه باكياً:

- أين الصورة يا رذيل؟ أبقيت هذه العصا كعير حمار في يدك!! أين رميت صورة الرئيس؟ غداً سأريك في المدرسة! بسيطة! كل الحق على فاقد الشرف الذي رباك هذه التربية؟!

حين رأى الصغار ما حلّ بقادو تملكهم خوف من أن تسقط الصور من عصيّهم. ينظرون إلى الصورة بعين، وبالأخرى إلى المعلم الأحدب الذي كان يمسك عجيرته بيده، ويخرج من المسيرة بتثاقل. جلس مستنداً إلى الحائط محدقاً بغضب في المسيرة. كان يرغب في استعادة قوته ليلعب دوره ثانيةً قبل أن يسلبه آخرون هذا الدور المقدس. طبعاً كانت هديةً من الله له أن يسمعه مؤيدو الرئيس ورجاله في العلن والسر، وهو يبدي بسعادة ارتباطه بالرئيس وإخلاصه له، كما كان على استعداد للتضحية والفداء في سبيل رفعة الرئيس الخالد، ليعيش إلى الأبد.

صبيحة اليوم التالي جلبت معها للمعلم مفاجأةً لا تخطر على بال. رجال الشم، وكتبة التقارير جاؤوا إلى غرفة الإدارة وطلبوه للتحقيق. قاسمو أيضاً كان هنا، حتى تلك اللحظة ما كان يعلم سبب دعوته كل ما يعلمه أن ابنه قادو قد قام بعمل سيء، لكن رؤية رجال الشم زرعت بداخله خوفاً أحمر، ونسي حتى تلك الكلمات التي كان يعرفها من لغة المدرسة. اتجه إلى معلم يعرف لغته.

صدرت صرخة عالية عن المعلم الأحدب حين سألوه في التحقيق عن تلك الضجة التي أحدثها في المسيرة، لأنهم يعلمون أن للمسيرة معانٍ وطنية

وقومية، وأي إساءة إلى المسيرة إنما هي إساءة للوطن ولهذه المعاني السامية. هذا العمل يشكل خدمةً للأعداء، إنه بمثابة الخيانة. شعر المعلم الأحدب أن إهانةً كبيرةً توجه إليه؛ إذ كيف يصبح حبه للرئيس وارتباطه به موضعاً للشك؟! وهو المستعد أن يفدي الرئيس بالدم وبالروح. أقسم حينئذ أنه سينتحر إذا ما بقي موضعاً للشكوك. حين علت قهقهة رجال الشم أجاب المعلم باختصار وبشيء من اللامبالاة:

- قريباً سأبين عملياً مدى محبتي لسيادة الرئيس وارتباطي به سيدي.

كانت هذه كلماته الأخيرة لرجال الشم.

بعد يومين تحولت قصته إلى علكة بين الأسنان. كانت غرفة المعلم الأحدب مليئةً بصور الرئيس وتماثيله. ربط حبلاً قوياً بسقف الغرفة وسط هذه الصور والتماثيل، وضع الحبل في رقبته، وبهدوء ضرب برجله الكرسي من تحته. في هذه اللحظة اتجهت إليه زوجته كالبرق، اعتلت الكرسي وقطعت الحبل الغليظ بالسكين، فسقط المعلم على الأرض فاقد الوعي. بعد هذه الحادثة تحول المعلم الأحدب إلى إنسان آخر، حزين الملامح، لا يبرح المسجد، وبدل الشعارات راح يستخدم حنجرته الذهبية في تلاوة القرآن. بقي قاسمو تحت رحمة لكمات رجال الشم هؤلاء، وكلما تلقى

ضربةً منهم أو من عصاهم مدببة الرأس أعلن استغفاره. كان يهز رأسه مع كل كلمة يوجهونها إليه دون أن يفهم ما يقال. كان المعلم المترجم يخشى أن يترجم ما يقال بصوت عال، بل كان يكتفي بإفهام قاسمو باقتضاب. كان قاسموا يفهم الكلمات البذيئة بحق زوجته وأمه وأخته فقط.

عقد الخوف لسانه من جذوره.

كان يقول بأنه يحب الرئيس وأنه مرتبط به، ويدعو له دائماً، كي يديمه الله فوق رؤوسنا، ليستطيع حماية الوطن من ديناصورات الأعداء. وكان يقسم على أنه لم يعلم ابنه القيام بهذا العمل الحقير، وإنما كان دوماً يعلمه حب الرئيس العظيم، والدنا الخالد، هذا ما كان يزرعه في ابنه. ثم مَن هو هذا العبد الفقير، حتى يحقد على حامي الوطن والشعب من الأعداء والخونة. وعاهدهم على أن يؤدب ابنه في البيت. سقطت غترته، التي كانت على رأسه ككوفية إثر صفعة نالها، عند قدم رجل الشم، نظر بعينين حمراوين وداس عليها بالقدمين، وأمره أن يحمل كوفيته هذه ويضعها فوق رأسه. ثم أفهمه بأنه فعل ذلك ليدرك سوء عمل ابنه، تلويث هذه الكوفية البيضاء كتلويث صورة الرئيس تحت أقدام الصغار.

- ربما تستطيعون أن تخفوا ما تقومون به عن الله، وقد لا يعلم بما تفعلون، ولكننا نعلم كل شيء، كل شيء.... هل فهمت؟

هز قاسمو رأسه ناظراً إلى المعلم المترجم. جرجر خلفه قادو المرعوب وخرج:

- أترى يا قادو؟! يا حمار، يا بغل! «على كلٍّ» سنصل إلى البيت، وسأعلمك ما يجب عمله في المدرسة بعد اليوم!..

في البيت، لم تجرؤ زوجة قاسمو على الدخول إلى الغرفة التي كان قادو مربوطاً فيها من يديه وقدميه، حيث تورمت قدماه من أثر العصي.

- من تظننا يا بن الكلب؟! أنا إنسان فقير أعمل ليل نهار كي تأكل أنت وأمك لقمة سم! وأنت تقوم برمي صورة الرئيس... أين نحن من الرئيس يا بن تلك العنزة؟!

بعد عودة قادو إلى المدرسة طلبه المدير ثانية، ولقنه درساً في النظام ومحبة الوطن. ولأن المدير كان يشرح بغضب وانفعال فإن قادو لم يفهم منه شيئاً، وعاد إلينا باكياً مرتعشاً خائفاً.

منذ ذلك اليوم وهو يخاف من صورة الرئيس.

كانت رسوماته تخفي تحتها خوفاً غير واضح، خوفاً غير مفهوم. معظم الأحيان كان يملأ الصفحات البيضاء بمزيج من الخطوط السوداء الملتوية والمتداخلة. كلما أراد إثارة غضبي وانفعالي فإنه كان يرسم أشكالاً مربعة، لأنه كان يعلم أني أنفر من الأشكال المربعة. كانت أمي تقول بأنها حين كانت تضعني في دركوش(*) مربع الشكل فإني كنت أبكي، ولا أنام. ظنتني مريضاً. وحين لم تستفد من زياراتها إلى الأطباء، خطر لها أن تبدل الدركوش، وقتها ما عدت أبكي. ما زلت حين أغمض عيني وأرى في منامي هذا الحلم؛ الحلم الذي يتكرر منذ سنوات، تسيل الدموع من عيني، هدير الطائرات الحربية يشق عنان السماء، تحملني أيد خفية وترميني في فضاء سماء خرساء. وحين أتقلب في السماء يُرمى إليّ من بعيد بقطعة حديد مربعة الشكل. أمسك بكل ما أوتيت من قوة بتلك القطعة. يدخل رأسي في وسط الحديد المربع الذي يضيق شيئاً فشيئاً على رقبتي، يضغط على حنجرتي، وقبل أن أختنق أجفل من نومي مرعوباً.

خوف في النهار، وفي الليل خوف.

أتذكر أن خوفاً أزرق تسلل إلى كياني حين جلست في ذلك الكوخ المربع وسط الأذيال المقطوعة. مرت من أمام عيني كل الحيوانات المقطوعة

---

*) دركوش، Dergûs : سرير الطفولة الذي تهدهد فيه الأم صغريها.

الأذيال، إنها الآن أمام الباب، ستهاجمني معاً، وكأنني مرميٌّ بين أذيال وأنياب حيوانات هائجة غضبى. تلك القصة الغريبة التي كانت جدتي ترويها لنا عن مجيئنا إلى هذه الأرض المربعة، كما كان يدعي مدرس الجغرافيا، زادت من نشر الخوف في دمائي. في ذلك اليوم البعيد، حيث كان مدرس الجغرافيا يقول لنا إن الأرض مربعة. استغربت حين علمت أنه لا يمزح. ما أعلمه هو أن كل الناس آمنوا أن الأرض كروية. تملكني خوف حقيقي من أن تصبح الأرض مربعة، إلى أين سأهرب حينئذ؟! كمن لم يؤمن رفعتُ يدي. صرخ فيّ المعلم وطلب مني أن أسمع وأتعلم كغيري، لا أن أعيد له الأساطير القادمة من البلاد البعيدة. وكي لا يصير والدي خائناً، وكي لا تحمرّ يداي وقدماي من أثر العصي، فقد بلعْتُ ريقي في صمت. حينها تسلقت كلمات جدتي كغيمة عجوز سماءَ ذاكرتي.

-كانت السماء في ذلك اليوم تمطر وحلاً، تبعثر الناس بسرعة إلى سقوف بيوتهم يحتمون بها من الوحل المتساقط بدل المطر، ينظرون بحَيْرَةٍ إلى السماء الهائجة. تُرى، ماذا سيصيب العالم لو أن السماء أمطرت كل يوم مثل هذا الوحل؟!

في الوقت الذي كان الظلام الطيني يسيل مع حلول الليل، كانت فرائص العجوز حسينة ترتعد خوفاً. حسينة المرمية في غرفة ضيقة من أحد زوايا وطن منسي. الأب غائب عن البيت، والأم في حال ولادة في هذه الليلة الظلماء والطينية، ثم أنجبت فأراً. أقسمت حسينة أغلظ الأيْمان أن ما نزل من بين فخذي رَوْشي في تلك الليلة لم يكن طفلاً، بل كان فأراً. صفق بجناحيه بدل يديه، وكأنه يحتضر. ولأن الناس كانوا مشغولين بتساقط الوحل، فإنهم لم يأبهوا بالمصيبة التي حلت في هذه الغرفة الصغيرة. ولا أحد يعلم كيف طوى النسيان تلك الحادثة، وأخذ الفأر شيئاً فشيئاً يأخذ هيئة طفل مُتكَوِّم على نفسه كقبضة يد مغلقة. هذا الطفل لم يبكِ، كما يفعل كل الأطفال الذين يخافون من نور هذا العالم الغريب ويصرخون

باكين. لقد تطلع حوله بعيني الكبار. لم يخطر في بال العجوز حسينة أنه سيقضي بقية عمره- بدل هذه اللحظة- في بكاء طويل مرير. لم تفارق ذاكرة العجوز حسينة قط ذلك الكسر في وسط أحد عوارض السقف الخشبية في لحظة الولادة، وكأن مجيء هذا الفأر إلى الحياة سبب كسر العارضة الخشبية، العارضة التي كادت أن تكون سبباً في هدم المنزل كله. مازالت خائفةً من هذا الفأر البشري. ها هو يكبر، يصرخ، يقول لا، ينجو من الحرائق، يشعل الحرائق، يحترق ويهرب، يغضب، يبول واقفاً على حيطان البيوت حائطاً، حائطاً.

هذا الفأر الجهنمي، الفأر المنحوس والذي عُرِف مؤخراً باسم موسى، هو أنا.

موسى الذي يتقلب وسط جحيم مربع؛ جحيم سُيِّج بدول يعد فيها القتل أبسط الأعمال.

كثيراً ما كنت أسأل نفسي، تُرى، هل تراءى لجدتي أنني فأر أم أنني حقيقةً فأر؟! لكني فأر عنيد، معارض دوماً لقطط رجال الشم؟ كل الناس تحكي عن ذاك الرجل القامشلوكي وقصته مع البرق. ضربه البرق في العراء، شقه إلى نصفين، لم ينزف نقطة دم واحدة. بقي مرمياً هناك دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منه. والذي أدهشهم هو تحوله إلى عمود من دخان ارتفع ببطء نحو السماء. وكثرت فيه الأقاويل؛ بعض يقول هذا جزاء تارك الصلاة الذي لا يخاف الله، أخذه الله تعالى إليه ليحاسبه وليكون عبرةً لغيره. وبعض يقول إنه ولي من أولياء الله، وقد صعدت روحه إلى السماء على شكل عمود متطاول من رائحة إلهية كالمسك والعنبر آخذة شكل دخان. وكغيري، كنت أنا أيضاً خائفاً من لعنة الشتاء.

كان جدي قد زرع في نفسي حب الربيع، خاصةً بعد أن كشف لي أحد أسرار الطبيعة.

كان يقول، هناك الكثير من الورود تتكلم كالبشر. عندما تحب الوردة شاباً، في البدء تحادثه، ثم تتحول إلى فتاة جميلة. وحين تحقق غايتها تنفتح شيئاً فشيئاً وينمو في قلبها حب خالد. منذ ذلك اليوم وأنا أخرج وحيداً، بعيداً عن أنظار سمكو وقادو، إلى البرية باحثاً حيناً عن وردتي العاشقة، وحيناً عن وردتنا تلك التي كانت محور حديث جدي ورواها لي قبل هذا الانكسار الأخير الذي أوصله إلى حالته هذه؛ يحدق في الجدار باحثاً عن سلّم من نور يصعد إلى السماوات أو يهبط. لابد وأنه في بحثه الطويل ذاك قد صادف مثل هذه الوردة، لذا يقول إنه خاطر واجتاز حدود دول وجيوشاً، جبالاً وسهولاً وأودية خطرة من الصعب أن يخرج المرء منها حياً. دون شك، فإن وردتي هي ليلى بنت حَسَنو، وليلى نفسُها هي الوردة. لا أعلم لمَ يأخذ وجهها مكاناً له في وسط الوردة دوماً! هل ستتحول الوردة يوماً إلى ليلى، أم أن ليلى ستتحول إلى وردة وسأقطفها؟ لا أعرف كيف تسللت تلك المشاعر العذبة إلى داخلي.

أخاف أن ينبت ذيل مكان البثرة في مؤخرتي.

أحياناً أشعر أن شيئاً ما استطال من خلفي، وحين أمد يدي أقبض على الفراغ. معظم الأحيان أجد نفسي وكأنني في حديقة حيوانات كبيرة، وكل شخص مشروعُ تحوّلٍ إلى حيوان، حيوان غير مكتمل. يشبه الحيوان، أو أنه يبدو أمام ناظري حيواناً يمكن أن يلحق الضرر بالجميع. كيف سأرمي هذه الخيالات السيئة من رأسي؟ لم أعد أعرف إن كان خيالاً أم أنه حقيقة أعيشها ولا أرغب تصديقها.

آه، إن الوجع ينبعث من مكان البثرة، وأنا خائف.

كيف ستعشقني ليلى إذا ما كان لي ذيل طويل؟!

الآن، حياة جديدة تطرق بابي. يسحبني والدي بالقوة إلى عالم الكبار،

لأتعلم منهم. ولولا أنني سألتقي والد حبيبتي، هذه الحبيبة التي تسكن خيالي ليل نهار دون أن تعلم، لكانت رغبتي فاترةً في قبول طلبه في أن أعمل في دكانه الذي اشتراه حديثاً شراكةً مع حسنو. وكان هذا سبباً أساسياً لأن أبدي موافقتي

على طلب والدي. مع أنني لا أحب هذه السوق، ولا هذه الضجة اليومية، إلا أنه عليّ أن أساعد والدي وشريكه حَسَنو في الدكان قبل بدء دوامي في المدرسة وبعد العودة منها. سكان مدينتنا يطلقون على هذه السوق اسم «سوق الحرامية»، والكل يرتادونها دون انقطاع. كان والدي يشير إلى السوق ويقول:

- هذا قلب المدينة...

كنت أقول في سري، ما هذه المدينة التي يمتلئ قلبها باللصوص والنشالين وبالرجال الذي يقسمون بأغلظ الأيْمان من أجل قليل من النقود! عليّ ألا

أشغل رأسي الصغير بهذه الأفكار والهموم الكبيرة. كل ما يهمني هو أن دخولي السوق بصحبة والدي سيمكنني من الإمساك برأس الخيط الذي سيوصلني

إلى ليلى، ليلى هذه القادمة من بعيد، رؤيتها البديعة يبعث النار في قبور أجداد أجدادي.

خطرَ لي الآن أن أعود إلى قراءة عدة صفحات من مخطوطة «تاريخ الخوف» اليتيمة، لأروي لكم بعدها قصتي مع الرجل الملثم. كان من ساكني القبور. كان يتبعني دوماً بعينيه الصفراوين. من عينيه الغائرتين تحت جبينه كان يبدو أن وجهه جاف، قبيح، وذو تجاعيد. أحياناً، كانت تنبعث شرارات من عينيه الصفراوين الغامقتين. تحمرّ عيناه ويرسل باتجاهي

ضوءاً عجيباً. أحياناً كنت أحاول الالتفاف عليه وإزالة اللثام عن وجهه ورأسه، ولكنني لم أنجح، ومع ذلك لم أفقد الأمل. عليّ أن أعرفه. ربما يعرف أحدنا الآخَرَ جيداً. يبدو أن حكايتي مع ذاك الرجل ذي العينين الصفراوتين طويلة وشائكة. ولا أدري إلى أين ستأخذني وإياكم.

تاريخ الخوف

الفصل الأول من مخطوطة مسلسلة تحمل العنوان نفسه، ستنشر حسب رغبة الراوي.

إذا صادف أحدُكم الخوفَ يوماً، فليسأله عن مسقط رأسه، أين وُلِد؟

سيجيبكم أنه ولد في المربع الذي يوصل بين سوريا، تركيا، إيران، والعراق.

فليذهب الباحث الذي يرغب في أن يعرف الخوف ويتعرف إليه عن قرب إلى تلك الحدود، حيث ولد الخوف، كبر وشاخَ. لقد ولدتُ في بلاد تشرق الشمس فيها بخوف، كما أنها تنسحب مذعورةً باتجاه الغروب. بخوف يتناول الناس فطورهم صباحاً، ليبدؤوا حياتهم اليومية. يخافون من كل شيء ويتعبون. يرتدون ملابسهم بخوف، وفي الليل يسيطر الخوف على أحلامهم فيجفلون مبتعدين عن فراشهم، يشربون بعض الماء، يذكرون الله ويحمدونه على أنّ ما رأوه مجرد أحلام، وينامون بخوف. وحين يستيقظون في اليوم التالي يكون الخوف بانتظارهم. حين كنا أطفالاً كان آباؤنا وأمهاتنا يقولون عنا دوماً: «إننا نخاف على هؤلاء الصغار». ولما كبرنا قليلاً، وأصبحنا شباباً، قالوا: «نخاف أن تحلّ عليهم مصيبة قبل أن يهنؤوا بأعمارهم، ويسعدوا بحياتهم». وحين كبرنا أكثر ظلوا يقولون: «نخاف أن نموت وترافقنا كل هذه المخاوف إلى القبر».

هكذا كانوا يعيشون في خوف، ويموتون في خوف.

في اليوم الذي كانوا يضحكون فيه، كانوا يسكتون فجأةً ويقولون: «فليحمنا الله من عاقبة هذا الضحك، نخاف أن تكون عاقبته بكاء...». ثم يتضرعون إلى الله:

- سترك يا ربّ. استرنا من المجهول يا رب!

كانوا دوماً يخافون مما سيصيبهم ولم يبق شيء إلا وأصابهم.

وجدنا أنفسنا دون إرادتنا أبناءً للخوف، أبناءه وبناته المخلصين. كمن يمشي وهو نائم سلكت طريق الخوف، الخوف الذي كان دوماً إلى جانب الموت. كان يقترب من الموت، يدخل فيه، يخرج منه، ليعيش ثانيةً إلى جانبه.

هذا الخوف الذي ما زال يحفر صدري بمعوله المخضّب بالدم.

أتساءل دوماً، هل الخوف هو الذي رمى بي إلى هذه المناطق البعيدة، أم هي محاولة مني للقضاء عليه؟ مازالت هذه الفكرة غامضةً في ذهني.

- أيها الجبان، أيها الجبان ابن الجبناء!

صوت يصرخ في أذني، ومعه كان هناك صدىً يتردد وكأنه جواب: لا، لست جباناً. لا أنا ولا أبي. قاومنا بكل ما استطعنا في وجه الخوف. أخفنا الخوفَ كثيراً! لكنه كان يثأر منا دوماً. جدتي التي ربتني على قصص الجن، حولتني شخصياً إلى جنّي..

أرغب دوماً في السواد والظلام، وفي الوقت نفسه أخافهما.

كانت جدتي هي الوحيدة التي تصادق الجن، كانت تراهم وتتحدث إليهم. وكنا نكتفي بالاستماع. في إحدى الليالي، بينما كانت جدتي نائمة، وإذا بيد خفية خفيفة توقظها. في ذلك الوقت كان جدي على سفر، وكان نائماً في الظلمة. حين فتحت عينيها رأت جنيةً شعثاء الشعر طويله، تشير إليها بإصبعها إشارة السكوت، عيناها تضيئان. فتحت كفها وقربته من فمها المفتوح ونفخت فيه. تحول الهواء المنفوخ بهدوء من فمها إلى شمعة مضيئة. وضعت الشمعة على الأرض، وبيديها نفضت شعرها الطويل، فتساقطت مئات البراغيث على النار ناشرةً الخوف من حولها وهي تنفجر

في نار الشمعة. كان الحماس يتملك جدتي وهي تروي لي القصة دون أن تلفظ كلمة «الجن»، كي لا تكون السبب في حلول لعنتهم علينا حسب معتقدها. كانت تشير إليهم بقولها «هؤلاء الأفضل منا». وكنا نفهم هذه الإشارة وندخل معها في نقاش:

- لم كانت تأتي إليك حصراً؟

- كانت مهمومة، جاءت تشكو لي همها وغمها.

- هل للجن دموع يا جدة؟

- أحياناً تكون دموعهم من دم.

كانت تبكي بحرقة شديدة، وهي تتحدث عن زوجها العصبي، وعن أولادها الضائعين. كانت أمّاً مجروحةً من الداخل، تزوجت حسب قوانين عالم الجن. تبنى كل علاقاتهم على القضاء والقدر. كان زوجها شخصاً قوياً، سميناً، وعديم المشاعر، كلما جاع أكل أبناءه.

- كان يأكل أبناءه؟! هل هناك أب يأكل أبناءه؟!

- أجل يا بني، حين يجوع البشر يأكلون ما يلقون، وإذا لم يلقوا شيئاً يأكلونه، فإنهم يأكلون بعضهم بعضاً؛ القوي يأكل الضعيف، وحين لا يجد المرء لحم البشر يأكل نفسه. لا دين للجوع ولا ضمير يا بني!

جدتي تقول إن شهوراً مرت عليها وهي تأكل خبز الشعير. وحين لم تجد الشعير بدأت بأكل الشجر والأعشاب المرة. ولو استمر القحط لأكل الناس بعضهم بعضاً.

وأتصور أن عائلتي بأكملها جائعة في بلاد ضربها القحط. يلتهم الأب ابنه، تأكل الجدة رأس حفيدها، تلوك الأم إصبع ابنتها. كنت أخاف من أن يأتي رجل سمين قوي كزوج المرأة الجنية ويمسك بي ويرميني في فمه، يلوكني، يمضغني، ويهرس عظامي بين أسنانه. شعرت بالغثيان، كدت

أتقياً، لكني بذلت جهدي للعودة إلى الاستماع لجدتي:

- عالمهم، عالم هؤلاء الأفضل منا، تشبه إلى حد كبير عالم البشر.

لكنهم لا يقتلون بعضهم. كانت تلك المسكينة تحاول أن تنقذ زوجها من عادته الذميمة تلك، لكنها لم تستطع، لذا كانت تأتيني تشكو همها وغمها. كانت قد أحبت شاباً وسيماً اسمه كاوى. كانا يلتقيان كل مساء، مع مغيب الشمس، تحت شجرة كبيرة أسمياها الخيمة الخضراء. كان كاوى يتنكر في ملابس امرأة ويأتي للقائها، يضمها إلى صدره، يقبلها، يتبادلان أطراف الحديث حتى قدوم خيول الليل السوداء. كان كاوى الأنيق قد عشق عينيها الناريتين. كلما اقترب أحد ما -من عالم البشر- من مكان لقائهما، كانت عيناها تضيئان، ويختفيان عن عيون البشر. إنهم يروننا ولا نراهم. هكذا مضت الأيام إلى أن رأتهم عجوز من الجن، غضبت كثيراً وراحت إلى والد الفتاة تخبره. مع حلول مساء اليوم التالي كانت العجوز والوالد قد اختبأا بالقرب من الخيمة الخضراء. وحين التقى العاشقان كالعادة، وضمها كاوى إلى صدره، تناهى إلى أسماع هما صوت، أرسلت عيناها ناراً، ونشرتا ضياء، لكن مَن كان يراقبهما هذه المرة لم يكونا من البشر، كانا جنيين. حين رأت والدها غاضباً وسمعت الضحكة المتكسرة للعجوز، طأطأت رأسها خجلاً. كان ذلك آخر لقاء لها بعاشقها. احتراماً لحبيبته وكي لا يزعجها اكتفى كاوى بمغادرة المكان بصمت دون افتعال أي شجار مع والدها. قبل أن يبتعد التفت على صوت الأب الخشن:

- إذا ما حاولت أن تلتقي ابنتي مرةً أخرى، فإن الله وحده يعلم ما سأفعله بك..!

- إني أحبها، ولن أتخلى عنها!.

- فلتعلم أن هذه العجوز، وليس غيرها، ستأكلك نيئاً!.

- تهديداتك هذه لا تخيفني.

أمسك الأب بيد ابنته وجرجرها نحو الدار. أغلق عليها الباب، ومنع عنها الطعام والشراب سبعة أيام بلياليها. في اليوم الثامن جاءها طائر عجوز ضخم، وأبدى مساعدته. ولأن مثل هذه الحادثة تجري كثيراً في عالمهم لم تسأله كيف دخل إلى هذا المكان. طلبت من الطائر أن ينقذها مما هي فيه، ويأخذها إلى مكان تسوده الحرية، مكان لا تطالها يد أبيها ورجاله الأقوياء. وافق الطائر العجوز على طلبها شرط أن توافق هي على أن تعيش في قصره المشيد وسط سبعة بحار. وحين لم تجد حلاً للخروج من هذا السجن الصغير، وافقت على العيش في سجن كبير. حملها الطائر العجوز على ظهره وطار. حط على صدر البحار السبعة الواسعة، في قصر شاسع، أنيق ونظيف، مفروش بهندسة عالية. تنتشر في كل مكان من القصر تماثيل وهياكل فنية. ما من أثر لبشر هناك سوى امرأة فائقة الجمال، ملكة في ثياب غالية وأنيقة، يكلل رأسها تاج ذهبي مزين بالمرجان، مربوطةً من رجلها اليسرى بسلاسل حديدية تمتد إلى الغرفة الأخرى. سُرّت الملكة بقدومها رغم الحزن العميق في عينيها الخضراوتين. حط الطائر العجوز بالقرب منهما، خلع ريشه وتحول إلى رجل من لحم ودم، تعلو البسمة شفتيه.

كيف يتحول الطائر إلى إنسان؟

هذا ما أدهش المرأة، وأدهشني أكثر. أثار الخوفُ في عيني انتباهَ جدتي. كنت أرتعش، ولم تفارقني فكرة أن أتحول إلى حيوان صغير. الحيوان، كيف يتحول إلى إنسان؟ أرعبتني هذه الفكرة. هنا توقفت جدتي، ووعدت أن تكمل قصتها في ليلة أخرى وذهبت لتنام. خبأت رأسي تحت اللحاف، أحببت أن أنام لكنني لم أستطع. طوال الليل كنت أفكر في كاوى، في العاشقة المهزومة والوحيدة، في رجال والدها الأقوياء، وفي المرأة الجنية والملكة المربوطة والطائر العجوز. في اليوم التالي كنت أفكر في مكان

هؤلاء الذين تحدثت عنهم جدتي. هل يا ترى يعيشون بيننا ولا نراهم؟ نظرت إلى السماء. هل هم في مكان ما من السماء؟ إذا كانوا هناك فهل أستطيع الوصول إليهم والتحدث معهم؟ ل ِمَ لَمْ أسأل جدتي عن لغتهم، وإذا التقينا هل يستطيع أحدنا أن يفهم لغة الآخر؟ كل هذه الأسئلة بحاجة إلى أجوبة. السؤال الأول هو: لم أخاف حين أفكر، وحيداً، في هذا العالم المجهول؟

لم أخاف؟

لم الخوف؟

الخوف ابنٌ شرعيٌّ للظلام.

أحب أن يخبئني الظلام تحت جناحه، كي أطير مع خيالي إلى عوالم غير معروفة. العتمة تبدع خيالاً. والخيال يخفف من هذا الحزن الذي يلوك القلب. تأسرني سلاسل الدهشة والاستغراب من هؤلاء الفاتحين أفواههم طوال اليوم دون أن يعرفوا السبب. يصدرون أصواتاً غريبةً من بين شفاههم البلاستيكية. تطول شفاههم، تتجعد، تنكمش، تتمدد وتتداخل ليعيدوا فعل ما كانوا يفعلونه. هذه الحياة مزعجة، وأعمال هؤلاء الأشخاص لا تُهضم. قطع اللحم والعظام هذه التي تغطيها الأقمشة تملأ الشوارع. ماذا يريدون يا ترى؟

عم يبحثون؟

إلى أين يذهبون؟

تحت كل قطعة قماش، قلب ينبض، روح، مشاعر، رغبات، انهزامات وخوف... من لا يخاف من الحياة يخاف من الموت، ومن لا يخاف من الموت يخاف من الآخر أو من نفسه. والذي لا يخاف لم يولد بعد. كنت أنظر باهتمام إلى الحيوان الذي يُقطع ذيله؛ كان يقاوم الموت مقاومة غريبة،

كان يتعلق بالحياة بكل ما أوتي من قوة وكأن الحياة تكمن في ذيله! وحين يبقى بلا حول ولا قوة، ويقطع ذيله كان يخاف على عضو آخر وهكذا. لكننا متمسكون بالحياة من ذيلها. يتمسك الإنسان بكل قوته بذيل الحياة إلى أن ينال ركلة أو رفسة عجلى تأخذه ويقع مرة واحدة في حفرة العدم. المسألة لا تحتاج إلى وقت طويل كي يلفها النسيان. هل هناك من لا يخاف أن تصيبه تلك الركلة-الرفسة؟ ركلة ينتظرها كل شخص يوماً بيوم، وأخيراً تأتي. إنني كذلك أخفت الكثير من الحيوانات، وما زلت أهرب من تلك الركلة التي ستضرب صدري. أخاف ألا تأتي في أوانها. لكن متى أوانها؟ تقول أمي أنني حين سقطت من عتمة الرحم إلى عتمة أخرى، هاجمني قط سمين، وأن عينيّ القط السوداوين الفوسفوريين قد أخافاها كثيراً. أطلق القط صرخته قبلي وهاجم. تقول أمي أنني حدقت في عينيّ القط المشاكس بعينيْ رجل عجوز ثم بكيت. وقتها خافت عليّ أن أكبر قبل أواني. لم تكن أمي مخطئة، ها هو قلبي قد شاخ. أخافني القط الأسود، وأنا أيضاً أخفته بعويلي لذلك فر هارباً. ولدت في مكانٍ سيده الخوف، تنقلتُ بين أماكن متباعدة؛ دول، حدود، سهول، جبال، طرق، غابات، جليد، حرس، طائرات، مخابرات، بواخر، طيور، بوليس، وحيوانات. ولا شيء يجمع كل هذه الأماكن سوى الخوف. آه أيها الخوف! أيها الخوف الجميل، يا شريك عمري المشلول. أيها الصديق الوحيد لأيامي ولياليّ التي لوَّنَها القير بلونه.

الانتحارُ حرقاً فلسفةٌ،
وحده العاشق قادر على قراءتها.

منذ اليوم الأول لذهابي إلى السوق، والرجل الملثم ذو العينين الصفراوتين يراقبني، ويتبعني. كلما حاولت التكلم معه، رأيته يجفل ويهرب. مرة لاحقته، كان أسرع من كلاب الصيد، حيث اختفى عن أنظاري بعد مسافة شارعين، عدت إلى أبي في الدكان منقطع الأنفاس. كنت أهتم بحسنو أكثر من اهتمامي بأبي؛ حين يعطش أحضر له الماء دون أن يطلبه، وحين يجوع أطلب طعاماً قبل أن يطلبه. صار يحبني كثيراً، وينظر إليّ كولد ذكي ونشيط. ولم يكن يدري أنني أخدمه حباً بليلى. ليلى التي ورثت عن أبيها لون العينين والقامة الطويلة، وعن أمها لطفها ودلالها. ليس فقط والداها، بل حتى دجاجاتها أجمل من كل دجاجات العالم. إني أحسد ذاك العصفور الذي يحط بكل سهولة على شجرة التوت في باحة دارها. كنت أرى في المنام أني أطير وأطير دون أن يستطيع أحد اللحاق بي. تمنيت لو تحول الحلم مرةً واحدةً إلى حقيقة لأستطيع أن أحط بالقرب من قامة ليلاي الهيفاء، أضع رأسي على نهديها الناضجين تواً وأبكي عمراً، ثم أرجو من الله أن يحقق لي رغبة واحدة: أن أموت على صدرها. مع عودتها من المدرسة، ومن بين كل أصحاب الدكاكين والبائعين، كان توتنو وكالو أكثر مَن يثير اهتمامها، وكذلك اهتمامي. لا يتذكر أحد أنه قد رأى توتنو دون أن تكون السيجارة بين شفتيه. كان يقول في الرواح والمجيء:

- خلق العالم من التبغ والدخان.

إنه يرى كل شيء كالسيجارة التي تبدأ بشرارة صغيرة وتنتهي قليلاً

قليلاً. والإنسان أيضاً كذلك -يقول توتنو- يأتي إلى الحياة بصرخة قصيرة ويسير شيئاً فشيئاً نحو الموت والانتهاء. أحياناً، يمسك رأسه بكلتا يديه ويهرب إلى زاوية ما، منفعلاً:

- السيجارة الأكثر همّاً هي أنا، أنا السيجارة التي تأكلها النار.... السيجارة أفضل حالاً مني، يستطيع المرء أن يجد النار التي تقصّر طولها، أما النار التي تلتهمني..؟

بكاء حار يشد على خناقه. يشتاق توتنو إلى البكاء شوقَ الإنسان إلى صديق عزيز. يبكي بصوت عال، يحاول جاهداً ألا يراه أحد، وألا يسمع بكاءه أحد. يرتاح مع انهمار الدموع الحارة على خديه وتهدأ نفسه. يمسح دموعه ويعود إلى السوق ثانية. إنه معروف بسيفه الخشبي. لا يبقى أبداً دون تبغ، يرسل الدخانَ من بين شفتيه إلى كل الجهات. أحياناً يحمل كتباً سميكة ويتكلم عن تاريخ الفلسفة. وكي يوضح مفاهيمه بشكل جيد يرفع سيفه ويقول:

- القوة، القوة هي كل شيء..

بعض يستمع إليه باهتمام، وبعض ينظر إليه وإلى سيفه وتبغه بسخرية. الجميع يعرفون أن توتنو صاحب فلسفة «ضد العالم». حيناً يكتب على الجدران، وحيناً يقول:

- أنا ضد العالم. أنا ضد نفسي، وضد الجميع..!

وفي الفترة الأخيرة صرح لي:

- إني أفكر في فلسفة الانتحار حرقاً... كل شيء عندنا هو حرق النفس. سياستنا ثرثرة فارغة وخاطئة. كل شيء يحترق، ويبقى الرماد وحده بين أيدينا. حربنا؟ إننا نحارب ونحن في بيوتنا، كل شيء ينهدّ فوق رؤوسنا والدولة تسلح بعضنا لنقتل بعضنا الآخر.

أي أن قرانا، بيوتنا، حياتنا، كلها تحترق، ثم ماذا؟ لا يبقى لنا سوى الألم والدمار والتشرد.

يرفع سيفه الخشبي:

- حتى هذا السلاح، مع أنه خطر، إلا أنه لا يحرق غيرنا. وحين تضيق علينا الدائرة، بأيدينا نحرق أنفسنا.

بسرعة، رسم توتنو بسيفه الخشبي دائرة حول نفسه:

- انظر يا أخي موسى، إننا كالعقارب، موضوعون ضمن دائرة النار هذه. قد يكون الذنب ذنب سايكس-بيكو، وقد يكون ذنبنا، ولكن في النهاية نلدغ أنفسنا، نقتل أنفسنا، نحرق أنفسنا!..

وحين رآني أستمع إليه بجدية، سُرّ كثيراً وبدأ يوجه سهام هجومه على الناس في «سوق الحرامية» حيث يقضي كل وقته:

- إنهم يرونني مجنوناً، وأراهم مجانين! إنهم على حق كما أنني على حق. قد تقول إن توتنو قد جن بسبب قراءته الفلسفة. لا! فالحقيقة كعاهرة رخيصة، تخرج مع أيٍّ كان..

لم أزعل أبداً من توتنو، وكلما سنحت لي فرصة ذهبت إليه، يتحدث ساعات وساعات، وأنا أصغي إليه وأكسب معرفة. أحياناً كانت ليلى بصحبة صديقاتها، إذا ما التقينه، وقفن معه يتحدثن إليه، ويمازحنه. كان ينتقل من مكان إلى مكان؛ يتناول الفطور عند أحد أصحاب الدكاكين، والغذاء عند آخر والعشاء عند الثالث. مرةً صرح لي:

- لساني هو كل ما أملك، لولاه لما أكلت خِبزاً. إن هذا أيضاً يعتبر عملاً، هل فهمت؟

- أجل، ولكنك ضدهم جميعاً! لم لا تميل مع هواهم كي يحبوك؟

تغيرت ملامحه مع كلماتي هذه، وبانت عليه الجدية، قال بنبرة مجروح:

- لا يا موسى، لا. لا تقل هذا. لن أخون نفسي وقناعاتي ولو مت جوعاً. هذه قناعاتي ومعتقداتي، ليست الغاية أن أكون ضد كل شيء. إنما، ومنذ وعيت، وكل شيء ضدي. لذلك حين أصرح بهذه المبادئ والقناعات، فإني- شئتُ أم أبيت- أصطدم مع الآخرين... ما كنت أرغب أن يحصل هذا، لكنه حصل. قد لا تفهمني الآن، ولكن ما أن تفكر قليلاً في الأمر حتى تفهم ما أرمي إليه.

مع انتهاء كلماته هذه غطى دخانُ سيجارته «اللف» رأسَه، بينما كانت عيناه نصف المغمضتين تحدقان في نقطة بعيدة مجهولة. يسكن توتنو في طرف المدينة في بيت مكون من غرفة واحدة. كان يجلس أحياناً في حوشه الصغير، يطالع كتاباً ويدخن سيجارةً إثر سيجارة. وفي السوق كان الأطفال يجتمعون حوله أحياناً وهو يلاعبهم؛ يريهم قبضة يده المغلقة ويسألهم:

- ما الذي أمسكه في يدي؟

- قود.

- حجرة.

- خاتم.

يفتح توتنو كفه.

يصيح الأطفال بصوت واحد:

- إنها فارغة!

- لا، لا! الدنيا، إنها الدنيا. الدنيا في يدي..

يندهش الأطفال غير مدركين الأمر، بينما تعلو قهقهة توتنو:

- طبعاً الدنيا فارغة، إنها قبض ريح... ها.. ها.. ها... ربما تفهمون عندما تتقدمون في العمر. ولكن ها إني أقولها لكم الآن: إنها الدنيا، دنيا!..

يتفرق الأولاد دون أن يفهموا، بينما يتجه توتنو منتشياً إلى الكبار يتحدث إليهم عن فلسفته. إنه يبعث الروح في السوق، يخوض في كل المواضيع ويتدخل في كل شاردة وواردة. يحبه بعضهم، بينما ينفر منه آخرون. في السوق تربطه بكالو صداقة قوية. يمكثان في السوق أكثر من مكوثهما في البيت. ربما لا يُعْرف إذا ما قيل اسمه «كالو» عارياً، لكن إذا ما قيل كالو «أبو المنفاخ»(*)، فالجميع يعرفونه مباشرة. يحمل مجسمًا من جلد كالقربة عليه مصور الكرة الأرضية. يحاول النفخ في القربة دون جدوى، لذلك يحمل منفاخاً لينفخ «الكرة الأرضية» المعروفة باسم القربة. تحوي جعبته بعض الأوراق القديمة والآثار والمنفاخ، وأشياء أخرى.

- هذه القربة هي الأرض، إنها الأرض! الأرض التي نعيش عليها، أريد أن أملأها لكنها دائماً مثقوبة.

كان يضع القربة عند قدمه على الأرض، ويبدأ بنفخها، تراها مملوءةً حيناً وفارغةً أحياناً. لم تكن لحيته الطويلة وحدها البيضاء، إنما شواربه وملابسه أيضاً. يجلس يومياً في زاوية من السوق على كرسي خشبي سميك، ويبدأ ببيع الآثار (يطلق هذا الاسم على أشيائه). وآثاره عبارة عن أوانٍ قديمة، حلي من حلق وأساور، مسابح، كتب قديمة مصفرة الأوراق، طيور من الجبصين والخشب والمعادن، بالإضافة إلى كل ما يقع تحت يده ويمكن أن يباع. نايه معروف

في السوق، يرافق نايه روايته لقصصه مع السلاطين والملوك:

- أنا ملك السماوات والأرض. الملك الذي خانه التاريخ، التاريخ ابن الكلب! التاريخ الذي يستلقي على ظهره فقط أمام الأقوياء.

حيناً يعزف كالو على نايه ويحلق معه بخياله وأحلامه بعيداً، وحيناً ينفخ قربته المثقوبة بكل ما أوتي من قوة، وحيناً يغني ويروي قصصه مع

*) كالو: تعني في الكردية العجوز.

سلاطين وملوك من عصور علاها الغبار في التاريخ. اعتاد مَن في السوق على قصص كالو من جهة، ومن جهة أخرى اعتادوا على توتنو وفلسفته وشعاره «ضد العالم». يبحث كالو عن أثر لابنه السياسي. منذ عشرة أعوام أخذه من منزله شخصان يرتديان لباساً مدنياً، ومنذ ذلك اليوم لا أحد يعرف مكانه، وكذلك لا يجرؤ أحد على السؤال عنه. وكلما خرج شخص ما من سجن، ذهب إليه كالو مستفسراً ولكن دون جدوى:

- النبي عيسى كان البارحة، قبل ألفي سنة، ونبي المسلمين قد بعث قبل حوالي ألف وخمسمائة سنة. لكني، أنا ملك الزمان، فقد انقضى ألف ألف عام وأنا أنفخ هذه القرية المسماة الأرض. كلما سُدّ ثقب انفتح آخر. وحين تُسَدّ كل الثقوب يتعطل منفاخي...

أفضل جلساتي حين أجتمع بتوتنو وكالو. مرةً رافقني توتنو وجلس بين والدي وشريكه حسنو وقال:

- والله، لم أقتنع بشراكتكما هذه!

اندهش والدي وشريكه وقالا معاً:

- ولمَ يا توتنو؟

أطلق توتنو حبلاً من دخان فوق رأسه:

- هل يُطبَخ رأسا كبشين في قِدْر واحد؟ لم أقل هذا، بل قاله آباؤكما وأجدادكما.

أيقنت أن كلا من والدي وشريكه يقول في سره:

- توتنو على حق.

ولكن هل يقال كل ما في الصدور؟ وصرت أسأل في سري كيف أستطيع رؤية حبيبة القلب ليلى؟ منذ أيام أشعرتها بأنني أموت شوقاً إلى رؤيتها، وأنني على استعداد أن أقدم لها حياتي كشربة ماء. قرأت في عينيها خوفاً صامتاً:

- الحب لم يخلق لنا. لا مكان في هذه البلاد للحب. هنا فقط يستطيع الإنسان أن يموت، إلا أن الموت أيضاً يحتاج إلى موافقة المخابرات!..

كنت أود لفْتَ انتباهها إلى رائحة الحب الشبيهة بالنباتات الخضراء التي تنبت في إثْرها كلما ترفع قدميها، لكنها كانت غارقة حتى أذنيها في تعب السياسة. أدهشني حديثها ذلك اليوم:

- ليس فقط اللغة الكردية ممنوعة هنا. عندما تمنع لغة الإنسان تمنع أحلامه أيضاً، والحب ما هو إلا حلم.

- ماذا تودين أن تقولي بالضبط؟

حدجتني بنظرة شرسة وذات معنى:

- أود أن أقول: موسى! استيقظ من النوم.

بعد ذلك التقييم المدهش لتوتنو عن شراكة أبي مع حسنو بوقت قصير، انفصل أحدهما عن الآخر، وصار لكل واحد منهما دكانه الخاص. وغطى ضباب الأيام الصعبة وجه ليلى الذي اشتقت إلى رؤيته. أصبحت رؤية ليلى حلماً، والأحلام حقاً كانت ممنوعة.

صورتها كانت تتراءى لي في كل مكان وحيثما ألتفت.

التفتت ذلك اليوم، فوقفت وجهاً لوجه أمام الرجل ذي العينين الصفراوتين. حدق الرجل الملثم بعينيه الضيقتين، العميقتين، في عيني. خطرت ببالي فكرة أن أحمل مسدساً وأفرغ كل طلقاته في رأسه لأرتاح من ملاحقته. إلا أن فكرة أن أصبح قاتلاً أرعبتني، وقررت أن أكتفي بالضرب المبرح. إذا التقيت هذه المرة بهذا الرجل الذي له وجه يشبه وجه رجل ميت، سأمسك بياقته وأطرحه أرضاً، سأمسح به أراضي هذه البلاد المترامية الأطراف.

تاريخ الخوف (٢)

الجزء الثاني من المخطوطة اليتيمة

الخوف منتج عالمي. يمكن رؤيته في كل زمان ومكان. ربما يسجل التاريخ بأنه أقدم من الإنسان نفسه، لأن الحيوانات أيضاً تخاف. لكن الخوف، بعيداً عن البشر، يفقد معناه. يستحيل أن يفهم الإنسان الخوف، أن يميز طعمه أو لونه، أن يعرف أية مشاعر تصاحبه وأي أثر يخلفه وراءه، بلا تجربة. الخوف شيء لا يستطيع المرء معرفته إذا لم يره بعينيه.

كنت قد تطرقت إلى حكايات جدتي ولم أكملها.

طالت حكاياتها لأكثر من خمس ليالٍ متتالية. ما أستطيع تذكره هو أن ذلك العجوز الذي كان نفسه طائراً ضخماً، كان عاشقاً للملكة مقيدة الرجلين. كان العجوز يفك أسر الملكة في الليل، ينام معها، ولدى طلوع النهار يقيدها من رجليها من جديد. لا أدري فيما إذا كانت الغيرة سبباً لتلك القيود أم فقدان الثقة أم أنها عقوبة ما؟. جدتي، ساردة الحكاية، كانت تقول بأن الملكة كانت في غابر الأزمان زوجة ملك شهير. وأن الطائر العجوز العملاق قد خطفها، وأنه لا زال يعيش ذلك الهاجس بأنها قد تتركه في أية لحظة لتعود إلى زوجها الأول.

ما أدخل الغصة في حلقي مرةً أخرى هو الخوف.

حتى هذه القصور المترامية الأطراف لم تسلم من الخوف، كما لم يسلم منه حتى هذا العجوز الذي يتحول حيناً إلى طائر وحيناً آخر إلى إنسان.

الخوف هو الذي يدفع العجوز الخرافي هذا إلى تقييد الملكة الجميلة.

الخوف هو الذي يجعل الدموع تسيل على خديها الورديين، كذلك الخوف هو الذي يزرع الهلع الدائم في قلب العجوز العملاق، والخوف نفسه هو ما يطيِّر كل هذه الطيور الحزينة من عينيه. ذات يوم، يحلم الطائر العجوز بأن عزرائيل يحلّ عليه ضيفاً، فيخاف من الموت. ولكيلا يذهب إلى القبر (ظالماً) فإنه، منذ ذلك اليوم، فك أسر الملكة الجميلة. اندهشت الملكة عندما رأت نفسها فجأةً طليقة، بلا قيود ولا جنازير. بدأ الطائر العجوز يرى بعينيه كيف تنتظره الملكة الجميلة في ذلك المكان الذي كانت مقيدةً فيه، بلهفة وبحب يفوق حبها السابق له. وهكذا ندم الطائر العجوز على ما كان يفعله مع هذه المرأة المخلصة من تقييد، ومن ربط بالجنازير وعاشا مع بعضهما بحب ووئام. حتى جاء ذلك اليوم الذي عليه، ككل إنسان، أن يرحل من الدنيا ويموت. تحدث للملكة عن الوداع الأخير ووعدها بأن يزورها بين الفينة والأخرى على شكل حمامة بيضاء. وأسلم الطائر العجوز الروح على صدرها. تحولت روحه إلى حمامة بيضاء وطارت. وهكذا ظلت الملكة وحيدةً مع المرأة الجنية، وأرسلت مع الحمامة البيضاء خبراً إلى حبيبها كاوى ليأتي ويقيم معهن، بعيداً عن أعين رجال أبيها. تتزوج المرأة الجنية من حبيبها، يعيشان معاً بلا خوف في تلك الجزيرة المحاطة بسبعة بحار، حيث لا تصل إليها أيادي الأعداء.

كان ينتابني على الدوام إحساس غامض بأن جدتي لا تقص علينا قصصاً وحكاياتٍ خيالية، بل هي حقائق حدثت بالتأكيد. أوقفتني هذه العبارة (بلا خوف). كيف يمكن مقارنة تلك الجزيرة مع (جزيرة) أخرى كالتي نعيش فيها ونسميها وطناً، حيث الخوف أجهز فيه على الكبار قبل الصغار؟.

جيل مختنق يسلم الخوف إلى جيل آخر يختنق في صمت يستمد لونه من الخوف.

ماذا يفعل هدر كل هذا الحبر على بياض الورق مقابل هدر الدم على تراب بارد، تراب عار، تراب حزين و (مكسور الظهر)؟!.

هذه الدمعة المنسابة من عيني، يا مدينتي العزيزة، ليست ضعفاً، ولا أستدر بها شفقتك. كما أنها ليست دمعةً نابعةً من القوة لأستطيع الانتقام لدماء أطفالك القتلى. هذه الدمعة ما هي إلا جواب مختصر لصوت القتل الذي يرتفع اليوم من بلادي. لا أدري لماذا عندما يرتفع صوت القتل، يزداد صوت الألم ألفاً. عندما يرتفع صوت قلب كردي، وقبل أن يتحول إلى هدف لرصاص الحقد، تهطل الأمطار. ونحن نمد أيادينا إلى الفرشاة وإلى الألوان، نصنع اللوحات ونغني.

ماذا ستفعل الأغاني واللوحات عندما ترتفع أصوات الأحذية؟

لا صوت يعلو على صوت اللعب بالأرجل. اليوم يوم اللعب بالأرجل.

لم تعد المباراة مباراة لكرة القدم. المباراة هي مباراة الموت، وها هم اللاعبون يلعبون علانية. إننا نعرف بعضنا بعضاً جيداً. هؤلاء يتامى قتلة الأمهات.

نعرف كيف صنعوا من عظام قتلانا أعمدة لخيامهم. قدموا إلينا اليوم على هيئة لاعبين. ليتنا عشنا آذار لمرة واحدة بلا دم. أدميت القلوب وهي تقول إن القتلة عاجزون عن فتح أبواب المحاكمة لأنفسهم. ما من مستغيث سوى القوة التي في يدي وفي يدك. مدي لي يدك قامشلوكتي، تعالي نرفع معاً جثث هؤلاء الذين سقطوا لأنهم كانوا لا يزالون قادرين على سماع أغاني الحب بفرح. لا تنسي تلك الأوراق الخضراء التي تتساقط إثر حمل جنازاتهم. تعالي، غنّيلي أغنيتكِ الأخيرة، عن شباب قبل أن يبدؤوا اللعب سقطوا في الدم. لم يكونوا يعلمون لم أحضروا معهم كل هذه المجازر والطلقات. هذه اللعبة كانت لعبة الكبار، ولم يكونوا على علم بقواعد

هذه اللعبة. إن ذلك الطفل الذي قضى برصاصة ذلك العسكري، كان قلبي. القلب الطفل، التائق إلى اللعب والمرح، القلب المقصوف العمر، القلب، الأغنية الذبيحة و...غير المكتملة.

القلوب تعشق بعضها،
والطرقات تأكل بعضها.

تكون الأمكنة أحياناً كالأعداء، تفصل الأحباب عن بعضهم. هكذا اعتقدت عندما سمعت من والدي أن شريكه حسنو سيرحل ومعه سلوى القلب؛ ابنته ليلى. سينتقل إلى مدينة الحسكة التي تبعد عن قامشلو قرابة سبعين كيلومتراً. هناك سيفتح دكاناً إلى جانب دكان أخيه، وسيعمل هو وأخوته معاً. كان مؤمناً بهذا القرار.

- إنها محافظة، مركز، يراجعها كل أبناء المنطقة. ثم إن دكان أخي في وسط المدينة. سنغرق في المال.

احترق في قلبي سبعون كتاباً في الحب.

زرعت سبعون شوكة أمام قدميّ الحافيتين.

سبعون دمعةً معاً احتلت عينيّ الغارقتين في ضباب فراق ليلى ودخانه.

عليّ أن أرى ليلى قبل أن ينتقلوا.

دون تخطيط وجدت نفسي في السوق أتبع ليلى، أتبع رائحة الوردة التي على وشك القطاف. كنت بانتظار الحصول على رصاصة أفجرها داخل هذا القلب العاشق وأرتاح. قادتني قدماي إلى كالو الذي ما أن رآني حتى ترك منفاخه، ووضع القربة جانباً وكأنه كان ينتظرني:

- تعال يا موسى، أنا الوحيد الذي أعرف همك، اتركها. كل شيء دون جدوى. كل الأشياء تصبح قصصاً وتنتهي... اسمعني، سأروي لك قصة الشيخ عبيد الله نهري، كان شيخاً رائعاً.

رتب كالو قطعه الأثرية وأنتيكاته أمامه. وحين وجد الناس يزدادون واحداً بعد الآخر، ازداد حماسه:

- لم يكن عبيد الله نهري يعترف بالسلطة الإيرانية ولا بالسلطة العثمانية. إنما كانت غايته إنشاء دولة مستقلة، لا يقدم الضرائب والعساكر لهذا أو ذاك. مثلي تماماً، فكما أريد أن أصبح سلطاناً على الأرض والسماء، كان نهري الثائر يريد أن يصبح سلطاناً على كردستان. بعث برسائل إلى الخديوي في مصر، وإلى شريف مكة. كان يطمح في مساعدة الإنكليز والروس، ولأجل ذلك أرسل موفده إلى القنصلية الروسية في أرزروم. جاء لنجدته البطل المقدام حمزة آغا منغوري ومعه آلاف المسلحين.

أحد المستمعين كان يتابع القصة باهتمام:

- كم كان عدد جيشه يا كالو؟

- بإشارة من إصبعه كان النهري الثائر يضم آلاف المسلحين إلى حركته. تسعة آلاف من الخيالة، ثمانية آلاف من المشاة، وعشرة آلاف من قوى الأشباح.

- وما هي قوى ال أشباح يا كالو؟

- هم الأشخاص الذين يسيرون مع الجنود ليبدو الجيش أكبر. وككل انتفاضات الكرد، كان الإنكليز والأتراك يدعون أن الروس وراء الانتفاضة، الروس والأرمن والإيرانيون كانوا يقولون إن الإنكليز وراءه، ولا أحد يقول إن الحقوق المهضومة وراءه. في روايته كان كالو يحمل نايه ويلوح بيده. وفي كثير من الأحيان يضع توتنو سيفه الخشبي أمامه، يأخذ أنفاساً متتاليةً من سيجارته، يضيع رأسه بين الدخان، ويستمع إلى كالو بعينين مفتوحتين شاردتين. تركتُ المجلس دون أن أقرر وجهتي. وجدت نفسي أذرع الطريق أمام منزل ليلى جيئة

وذهاباً، وأنظر إلى نوافذ الدار كفاقدِ وعيه. يومها لم ألمح أثراً لليلى. صادفت سمكو:

- عسى خيراً يا موسى. إنك تبدو منهكاً جداً؟

- أنا تعبان يا سمكو، لا دواء لدائي.

- الداء الذي لا دواء له هو الحب. لقد فهمت.

- من الصعب أن يُفهم يا عزيزي!

لم أصل إلى نتيجة مع سمكو، فكل منا مشغول بهمه. أصدقائي كلهم بانتظار نيل شهادة البكالوريا ليعلموا ما الذي سوف يدرسون، وإلى أين سيذهبون.

وأنا بانتظار نيل قلب ليلى، الأصعب من كل الامتحانات التي قدمتها. حدقت طويلاً في النافذة المغلقة. تمنيت لو أن نظراتي تستطيع خرق الجدران، كما

في الأفلام، لترى ماذا تفعل هذه الساكنة خلف هذه الجدران والنوافذ. ظللت أذرع المكان إلى أن فقدت الأمل بلقائها، فعدت سريعاً. وجدتُ توتنو رافعاً سيفه، ماسكاً بخناق صاحب دكان ويطلب منه فاكهة. كان الرجل يرغب في إرضائه ولكن دون هذا العنف ورفع السيف، ومن دون أن يجرجره، لكن توتنو يريد أن يحصل عليه بقوة السيف:

- موسى، موسى!

التفت على صوت قادو.

- ماذا تعمل؟ تبدو وكأنك ناجٍ من مجاعة!

- لا، أنا ناج من الموت، وأموت ثانية...

- ألا تخاف يا موسى؟

- مم؟

- من الزمان.

كان قادو يتأبط أوراق الرسم، أردت أن أغير مسار الحديث:

- أين لوحاتك الأخيرة؟

- ها هي، خذها.

ناولني أوراقه، وما أن وقع نظري على القطط مقطوعة الأذيال:

- لم تضحك؟

- بسبب القطط مقطوعة الأذيال.

- هاااا! فحذاء الآخرين على أذيالنا.

تذكرت مباشرةً تلك البثرة الحمراء في مؤخرتي، والتي كادت ليلى أن تنسيني آلامها. فجأة شعرت بالخوف ثانيةً يتسلل إلى خلاياي. مددت يدي إلى مؤخرتي. تلمستها. شعرت بالفرح لأنه لم يتحول إلى ذيل بعد. أفاقني قادو من خيالي:

- هل تعلم يا موسى أن شيئاً واحداً لم أستطع رسمه رغم كل محاولاتي.

- ما هو؟

- الخوف، إنه الخوف. أريد أن أفرش صورة الخوف على الورق أو على قماش أبيض.

- هل أكلتَ دماغك يا قادو؟ ما الذي تقوله؟

- هذا الواقع الذي نعيشه يجعل المرء إما أن يأكل دماغه، وإما أن يأكل البشر دماغ بعضهم بعضاً!..

ومع حديثنا هذا بلغنا مكان كالو حيث مازال يروي قصة النهري الثائر:

- وسط ضجيج الحرب، وأعمال السلب والنهب، والنار، توحَّد الجميع في وجه النهري الثائر. اتجه من أورميا ما بين ستين ألفاً وسبعين ألفاً

من الناس باتجاه حدود تركيا الحالية. وكان والدي أحدَهم. هذه هي المرة الأولى التي أخبركم أن أجدادي من أورميا. مكث والدي فترةً في الجهة الأخرى من الحدود، في سرخت. مات في نصيبين بالقرب من جبال أومريان، ودفن هناك.

كان المستمعون ينظرون إلى كالو فاغري الأفواه، وقد تملكته الحماسة مع روايته القصص:

- أجل، هؤلاء كانوا آبائي وأجدادي. ولكني أنا، ملك ملوك الزمان، صاحب العرش والتاج الذهبيين، الذي بيده أربعة أوطان، سأحكي لكم ثانيةً عن مقاومة هؤلاء الصناديد، الذين بلغت شهرتهم يومنا هذا.

جلس قادو مقابل كالو وبدأ الرسم، تزداد خطوط رسمه مع زيادة حماس كالو.

- يذكِّرُني كالو بالتاريخ ، وبتلك المعاهدات التاريخية التي نحن ضحاياها.

تذكرت رجلين سمعت عنهما في صغري وما زالا يتكرران. سايكس (Sir Mark Sykes) الإنكليزي، وبيكو (Georges Picot) الفرنسي. انتابني نفور لا حدود له. أجفلني صوت قادو:

- إلى أين ذهبتَ يا موسى؟

- سايكس بيكو

ضحك قادو هازاً رأسه:

- هل تعرف هذين الشهمين، ماذا كانا يعملان؟

- إني أعيش معهما يوماً بيوم، دقيقةً بدقيقة...

أمسك قادو رأسه وعلت قهقهته:

- هل أصابك مكروه يا موسى؟ جنون، لا سمح الله، أو شيء من هذا القبيل؟

- لا يا قادو، أقول لك الحقيقة. كأن هذه الآلام التي نعاني منها كلها بسببهما. شخصان جلسا حول طاولة وبجرة خط من قلميهما غيَّرا خريطة الأرض. ها قد مضى ثمانون عاماً وما زلنا نعاني آلام نتائج عملهما ذاك.

- هل تعلم أن سايكس قد ألف كتاباً عن العشائر الكردية؟ (العشائر الكردية في الإمبراطورية العثمانية). يقول عن الكرد أنهم يفتقدون الشعور القومي.

أي أن ابن الحرام هذا كان يعرف حتى العشائر، وقسم الكرد بهذا الشكل بين هذه الدول!..

أما بيكو فكان القنصل الفرنسي في بيروت أيام العثمانيين.

التفت إلى قادو حين تذكرت شيئاً مهماً:

- قادو؟

- ها! ماذا حصل؟

- أريد أن ترسم لي بورتريه لسايكس وبيكو.

قلّب قادو شفته السفلى وكأن الفكرة لم تعجبه:

- لم أرهم حتى في الأحلام.

عدت يومذاك إلى البيت حزيناً. كانت أمي والعجوز حسينة تتحدثان عن الخانوق. كانت العجوز تقارن بين الأمراض قديماً وخانوق هذه الأيام، ورأت أن تلك الأمراض، ومن كل الوجوه، أرحم من الخانوق.

- قديماً كان الإنسان يمرض، فيموت مباشرةً أو يشفى. أما هذا الخانوق العجيب فلا يموت المصاب به، ولا يشفى.

تقاطعها أمي متوسلةً إلى الله:

- اللهم أوجد حلاً لأصوات الناس ورقابهم. إنهم ما عادوا قادرين على الكلام، ولا يصدر عنهم صوت، ولا علاج لهم.

مع توسلاتها تملكني سعال جاف، وبصوت مبحوح دخلت الدار:

- كفى يا أمي! قرّبتِ أجَلَكِ وأنت تتوسلين. كلما زاد دعاؤك ازداد الخانوق انتشاراً! وها هو قد طغى على كل هذا البلد. ما عاد يكفيه عشرة آلاف من أمثال تليسو.

في الجانب الآخر كان جدي يتحدث إلى بعضهم؛ هؤلاء الذين لا يراهم غيره:

- أجل، إنه بذاته، سلّم من نور، سأتسلقه وأصعد.. وأصعد.

تمنيت لو أن الله أرسل لي كذلك سلماً من نور لأصعد إلى حيث قلب ليلى. أضع رأسي بين النهدين الناضجين تواً، وأخبئ روحي هناك كي لا يرتعش ثانية. في اليوم التالي التقيت ليلى صدفة، ودون سلّم. تفاجأنا. وقفت صديقتها تنتظرها بعيداً عنا. وكأننا نختلس لحظات من الزمن:

- ليلى، سترحلون، ماذا سيحل بحبنا؟

امتلأت عيناها بالدموع:

- انس هذه المسألة يا موسى. لا مكان للحب في هذا البلد.

- ماذا يعني هذا؟

- يعني أن بإمكان الناس هنا أن يسعلوا فقط.

قالت بسخرية وبمرارة، كي تقطع الأمل. رميت إليها بالكلمة الأخيرة:

- سأخطبك ونتزوج.

اندهشت ليلى وردت مباشرةً وببرود:

- غير ممكن يا موسى! لم تكمل دراستك بعد، ولا عمل لك. وأنا أيضاً ما زلت أدرس.

- انتظرني إذاً.

أحنت رأسها. أشعلت النار في قلبي وحدقت في الأرض القاسية:

- لا أستطيع أن أعدك.

كانت صديقتها تنتظرها خائفةً من أن يرانا أحد معاً. ثبتت ليلى عينين مليئتين حباً وأسى في عينيَّ وغادرت. فهمت منها أنها تريد أن تشبع عينيها برؤيتي،

لأنها تظن أن هذه هي المرة الأخيرة التي ستراني فيها، فودعتني بعينيها. بعد يومين انتقل والد ليلى مع عائلته إلى الحسكة، دون أن يدري أنه قد بعثر قلبي على طريق قامشلو -الحسكة بين عفشه وأن الغبار يكاد يخنقه. أعلنت نتائج امتحاناتنا، كان يوم انفصال الأصدقاء، ولأنه لا توجد جامعة في قامشلو فقد اتجه سمكو إلى حلب لدراسة الحقوق، بينما ذهب قادو إلى الشام لدراسة الفنون الجميلة، ولأنه لا يملك واسطة –بلغة ذلك المكان- أو لا «ظهر » له فإنه

لم يقبل في كلية الفنون فاتجه لدراسة الفلسفة. أما أنا فقد بقيت في قامشلو طالباً في معهد إعداد المعلمين، لأبدأ بعد سنتين بتدريس التاريخ.

التاريخ الأعرج، التاريخ الكذب، التاريخ الأشبه بطرائف قاسية حزينة.

التاريخ المليء بالتراجيديا التي تثير الضحك. بين الحين والآخر كان سمكو يأتي من حلب ويتحدث عن حبه وفتاته العفرينية. أغلب حديث قادو عن بيته الذي استأجره، وكيف يذهب من حي «الأكراد» الذي غيروا اسمه وأطلقوا عليه اسم ركن الدين، إلى حي زورافا، والذي يحمل معناه، واسمه الرسمي هو «وادي المشاريع». في هاتين السنتين حصلت تغييرات

كثيرة، لكن سوق الحرامية مازال سوق الحرامية. لم تمتلئ قرية كالو ولم تخلُ من ثقوب، في حين تمتلكه رغبة شديدة لإتمام قصة النهري الثائر:

- بعد تراجع الانتفاضة أمام الجيش الإيراني، عاد نهري الثائر إلى شمزينان، ومن هناك، حيث يحكم العثمانيون، أعد العدة للقيام بانتفاضة ثانية. أمثال نهري العظيم لا يستطيعون العيش دون انتفاضات. أرسل إليه السلطان يطلب منه التخلي عن الانتفاضة مقابل ما يطلبه من مال ومنصب، لكن النهري الشجاع تحصن في قلعة أورامار وقاوم. حاصر الأتراك القلعة. ولمنع إراقة الدماء قال لهم بأنه سيغادر إلى موصل، ولكنه لم يغادر. وبعد ثمانية عشر يوماً من الحصار دمر العثمانيون القلعة بالمدافع، وأسروا نهري وأرسلوه إلى موصل، وأخذوا ابنه محمد صديق كرهينة إلى إستانبول، أما ابنه عبد القادر فقد خلفه وأخذ مكانه.

تناول كالو كأس ماء، حمل الناي وأصدر أنيناً حزيناً. ببطء وضع الناي جانباً، وبناءً على طلب ورغبة مستمعيه قاد القصة إلى النهاية:

- ولأن النهري الثائر كان محبوباً لدى الكرد والعرب، فقد زرع هذا الحبُّ الهلعَ والخوف في قلوب الإيرانيين والأتراك العثمانيين. جاء ابنه عبد القادر على رأس قوة كبيرة وبعد انتصاره في معركة في قرية قرب رواندوز خلص والده. لكن قوةً عثمانية مؤلفةً من آلاف الجنود هاجموهم، وبعد مقاومة عنيفة استمرت ست ساعات وقع النهري وابنه أسيرين في أيدي العثمانيين الذين أرسلوهما إلى موصل، ومن هناك أرسلوه أبعد؛ إلى مكة. اعتقدوا أن النهري الثائر قد مات وانتهى كل شيء، لكنْ لا، فها هو بيننا، يعيش معنا. لكن القدر يسير عكس المسار، إنه يدور في مسار مغلق حول نفسه ويدور.. ويدور.. سيأتي ذلك اليوم وأمسك- أنا ملك ملوك الزمان- القدر من خناقه وأسمعه أشياء كثيرة.

ما أن ينتهي كالو من قصة حتى يبدأ بأخرى، حيناً يتملكه صمت شديد، وحيناً يشتم ويسب، وحيناً يكتفي ببيع الآثار المفروشة أمامه. وعد هذه المرة بحكاية قصة حمزة المنغوري، البطل المشهور الذي جاء لنجدة النهري العظيم، ولم يستسلم إلى أن تآمروا عليه وخدعوه.

كنت واحداً من الكثيرين ممن ينتظرون قصص كالو. كنت أفكر في نفسي، في قصتي التي أعيشها الآن، ليس فيها بطولة ولا شجاعة، ولا شيء يثير الاهتمام، ولا ذكرى ترفع الرأس.لأحكيها لأولادي الذين لم يولدوا بعد.

أنا موسى المهزوم، الحالم، ذو القلب الدافئ.

موسى الذي يحب هذا العالم فقط في اللحظة التي يغلق فيها عينيه. وكلما يفتح عينيه يصادف ذلك الملثم ذا العينين الصفراوتين.

أمنيتي هي أن أعرف هذا الملثم، يبدو أنني هذه المرة سأحقق هذه الأمنية؛ اختفيت عن نظره، وكشرطي يتعقب لصاً خطيراً تعقبته، على رؤوس أصابع قدميّ، وخطوة بخطوة تبعته. أول عمل أردت القيام به هو إزالة اللثام عن وجهه. في اللحظة التي مددت يدي إلى اللثام التفت إلي ورفع أمام عيني قطعة حديد مربعة الشكل. لا أعرف كيف أدرك أني أنفر من الأشكال المربعة. فاجأني الموقف. رمى القطعة الحديدية أمام قدمي وفر هارباً، اختفى وكأن الأرض انشقت وابتلعته. غاب عن عيني. وعدت تائهاً ضائعاً إلى البيت. ما إن أغمضت عيني حتى زارني في الحلم، ماداً إصبعه أمام عيني متوعداً:

- إما أقتلك، أو تقتلني.

انتفضت من النوم مذعوراً. أردت أن أشرب ماء، وجدته مقطوعاً، وربما لم أتمكن من رؤية الماء. عدت إلى النوم بحنجرة جافة عطشى، داهم نومي اثنا عشر حلماً.

تاريخ الخوف (٣)

الفصل الثالث من مخطوطة عن بلاد لا تتغير فيها وإلى الأبد ثلاثة أشياء: الله، المخابرات، والرئيس.

يبدأ الخوف لدينا قبل الطفولة.

يخاف الرجل حين يرغب في النوم مع المرأة. فقد زُرع فيه الخوف منذ الصغر إزاء العلاقات الجنسية، لذا لا يستطيع أن يعيش تلك العلاقات الدافئة بعدما يكبر. تلك الرعشة التي تصاحب عملية إفراغ مائه الذكوري في بويضة الأنثى إنما هي رعشة خوف، قبل أن تكون رعشة اللذة.

في لحظة كهذه، لحظة تتنابها المخاوف خُلِقتُ في الرحم.

مضى ثلاثون عاماً برفقة خوف ثلاثي.

كان كل شيء في كل مكان يتغير، إلا في هذا المكان الذي نعيش فيه، فقد بقي هذا المثلث المرعب؛ الله، المخابرات، والرئيس، ثابتاً وخالداً. يستطيع المرء تقبل الله، مادام إلهاً للجميع، لكن هؤلاء المخابرات ما انتهوا، وما نقصوا، وما تغيروا أيضاً. في كل بلد يذهب رئيس ويأتي آخر، يرحل حزب ويأتي آخر، فقط في هذه البلاد يبقى الرئيس هو هو، والحزب هوَ هُوَ.

وإذا ما مات الرئيس بعد ثلاثين سنة، يُكتشف أنه قد أعد ابنه ليخلفه. ما يناله التغيير هو أسماء قرانا وبلداتنا.

أربعون عاماً وهم يتحدثون عن فلسطين في المدارس.

فلسطين المحتلة المسلوبة، كما يقولون.

ولأنهم غير قادرين على استرداد فلسطين البعيدة، فقد أطلقوا أسماء مدن وقرى فلسطين على قرانا ومدننا.

على هذه الحدود التي رسمها سايكس وبيكو بين سوريا، تركيا، عراق وإيران أوجدوا فلسطينَ جديدة. قرية كالو تحولت إلى حيفا. باخوت تحولت إلى غزة. وتحولت خراب كورت إلى الخليل. ربا آمو صارت طولكرم. توبوجير صارت طبريا. خربة كركيش صارت يافا. تلباتي صارت عكا قبرخيت صارت القدس وزورافا صارت زرافة.

مرةً، حلّ عربي ضيفاً على أبي، وكان الضيف قد جاء بقصد أن يشتري بقرةً كنا نملكها. فجأةً غاب موضوع البقرة، وحل المزاح محله. قال والدي لضيفه:

- إنكم –أخوتنا العرب- ما أن يأخذ أحد ما إحدى قراكم أو مدنكم حتى تطلقوا اسم تلك القرية أو المدينة، على قرية من قرانا أو مدينة من مدننا. ما دأبكم يا أخي؟

- لا، ياه، ما الذي فعلناه؟

- تقولون إن الأتراك قد أخذوا لواء إسكندرون وإسرائيل اغتصبت جولاننا، ثم ترمون اسم اللواء من تاريخكم وتطلقون اسم اللواء على قرية ألو، واسم الجولان على قرية قره قوزاق. ما هذا يا أخي؟

رد الضيف ضاحكاً:

- هم أقوى منا ويأخذون أرضنا. ونحن أقوى منكم.

أجاب والدي مازحاً بهزء يشوبه الحزن:

- الفرق أنهم أخذوا قسماً من وطنكم وبقي قسم، أما أنتم فقد وضعتم أيديكم على كامل وطننا!

- لذا فقد أتيت الآن لأضع يدي على بقرتك أيضاً!

- وختم الضيف اللطيف حديثه:

- اعملوا لأنفسكم، وإن كانت لكم القدرة فلا تسمحوا لنا أن نفعل ما نفعل. ثم هناك المخابرات اذهب وقل لهم، تأتي إليّ أنا المسكين وتخبرني! راعني في سعر البقرة وسأرد لك وطنك...

ضحكا وعادا إلى المفاصلة في سعر البقرة.

قد أيقظ هذا الموضوع أسماء أخرى في ذاكرتي؛ قرانا وبلداتنا حملت أسماء قادة العرب، ثورات العرب، آباء وأجداد العرب؛ مثل قحطان الذي منح اسمه لتربسبييه وصارت قحطانية، ومالك الذي منح اسمه أيضاً لديركي التي صارت المالكية.

هكذا تتكاثر مصادر الخوف.

لماذا ترغب هذه اللغات والثقافات أن تلتهم بعضها ولا تستطيع أن تتعايش؟

هؤلاء الذين يقومون بمثل هذه الأعمال، لماذا يفتحون كل هذه الأبواب أمام القتل والإبادة والاقتلاع والخوف؟ لا نهاية لمثل هذه الأسئلة المخيفة. الدين من جهة، والقومية من جهة أخرى، وسوء التفاهم من كل الجهات؛ الأم لا تفهم ما يقوم به الأب. الابن والابنة لا يفهمان ما يقوم به الوالدان. العائلة لا تفهم الجيران، الجار لا يفهم جاره الآخر. وكذلك لا تفهم قوميةٌ قومية، المسلمون لا يفهمون الإيزيديين، وأنصار هاتين الديانتين لا يفهمون المسيحيين.

تتشابك كل هذه الأشياء الواهنة المهترئة وتتحول إلى جسد واحد، روح واحدة، كلمة واحدة، وهي الخوف. خوف يحل بالمكان دون استخدام السيف والترس، دون مدافع وقنابل وحوامات عسكرية، إنه خوف أدرد.

تمنيت لو أن هذا الخوف كان رجلاً وبارزته وجهاً لوجه.

لقضى أحدنا على الآخر.

تمنيت لو كان امرأة، ليوجه أحدنا إلى الآخر سهام النفور المسمومة.

حلمي الدائم هو أن أمسك هذا الخوف وأرسمه، أفرش لونه، شكله وهيئته على لوحة، وأضعه أمام العيون، ليراه كل الناس بأعينهم ويدركوا مدى معاناتنا معه. يتحدثون عن السنين الأربعمائة التي عاشها العثمانيون على خيرات هذا الشعب، وبعد رحيلهم تركوا خلفهم أطلالاً.

توجه الإنكليز والفرنسيون إلى هذه المنطقة.

رسمت الحدود بخطوط الرجلين الغريبين سايكس وبيكو.

وضع أجدادنا، دفاعاً عن الحرية، أيديهم في أيدي أخوتهم العرب، أخرجوا هؤلاء الفرنسيين الجميلين من الوطن. على إثرها ونتيجةً للمحبة الفائضة أراد أخوتنا العرب أن يجعلوا منا عرباً، لكن العمى قد أصاب عيون أخوتنا وما عادوا يروننا، لهذا لم يعترفوا بوجودنا! أصاب الطرش أخوتنا، وما عادوا يسمعون غير لغتهم. وحين أراد أخوتنا تطبيق العدالة تبنوا الاشتراكية واستولوا على أرض جدي في القرية. لم يوزعوا الأرض على فلاحي قريتنا، جلبوا أخوة لنا عرباً من خلف الأنهار ومنحوهم تلك الأرض. حكومة أخوتنا المقدسة بنت سداً على نهر الفرات. فغمرت المياه القرى على جانبي النهر، وبقي الآلاف من أخوتنا دون مأوى ومسكن. وحتى تؤمِّن لهم السكن والأرض، ولكي تفصلنا عن (السرختيين) بشريط عربي، جلبت أخوتَنا وأمنت لهم المأوى والمسكن بيننا. فوقعت المصيبة على رأس جدي وأمثاله. أتذكر كحلم حين ركض والدي لجلب المسدس، ولحقه جدي وصرخ في وجهه:

- ماذا تفعل يا قاسمو؟

- إما نحن وإما هم! كيف يسلبون أرضنا ونحن ساكتون؟!

كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها جدي يصرخ في وجه أبي غاضباً. انتزع المسدس من يده. وفي تلك الليلة اتخذ قراراً بالرحيل إلى المدينة. كان والدي قد وضع رأسه بين يديه ويبكي بصوتٍ عالٍ في إحدى زوايا الغرفة. وكانت تلك المرة الأولى التي يعلو فيها صوته على صوت والده:

- لم تخافهم، وتختار لنا طريق الهروب؟

حاول جدي تهدئته من جهة، ومن جهة أخرى لينفذ قراره بالرحيل دون معوقات:

- صحيح أننا فقدنا المال والأرض يا بني، لكن الروح موجودة. قتلُكَ أحدَهم لا يغير في الموضوع شيئاً، إنما ستضيّعنا جميعاً. المسألة أكبر مما تتصور يا بني. استرنا لوجه الله.

في تلك الأيام الصعبة، كبر جدي في عيني، وقاره، هدوء أعصابه، وصبره الذي لا يعرف الحدود. كان يحاول تهدئة والدي وإقناعه بعدم وجود حل لهذه المشكلة:

- هذا من عمل الدولة يا بني. الدولة وضعت يدها على أرضنا. يقال بأنها حولت الأرض إلى «مزارع الدولة». والدولة جاءت بهؤلاء وتوزع عليهم هذه الأرض. مَن ستقتل، وتدع مَن يا بني؟.. وها هي الدولة بدأت تسلحهم وتبني لهم القرى. سنُداس بالأقدام إذا ما أقدمتَ على قتل أحدهم. المشكلة مع الدولة وليس مع الأفراد يا بني.

حقيقةً، فقد شيدت قرى لهؤلاء العرب «المغمورين». أطلق عليهم اسم المغمورين لأن المياه «غمرت» قراهم. وهكذا شيدت قرى البهيرة، أم الربيع، الثورة، الحاتمية، إضافةً إلى عشرات القرى، في تلك الأنحاء. لم يدم هدوء جدي طويلاً. ما إن استقر بنا المقام في قامشلو حتى انكشف أمامي الوجه الآخر لجدي. في ظهيرة يوم مشؤوم سقط جدي على الأرض.

كان سقوطه في عيني كانهيار جبل شاهق. كان رأسه على المخدة حين مد يده، وبوجه غادره الدم، إلى قطعة قماش معقودة، حيث غادرت روحه الجسد، وأسلم الروح للخالق. كانت قطعة القماش تضم حفنةً من تراب أرضه في القرية. لم تفلح محاولات الجيران الذين حضروا إلى بيته، في انتزاع حفنة التراب تلك، من كف يده المتيبسة. حتى تلك اللحظة كنت أظن أن والدي هو الوحيد الذي أثرت فيه عملية سلب الأرض، ويأسف عليها، لكن الأصابع القابضة على حفنة التراب تقول شيئاً آخر.

في ذلك اليوم أدركت أن الألم الكبير هو الذي يظل مخبوءاً، وحين يظهر يقتل صاحبه في الحال.

وهكذا غادر جدي الحياة مصحوباً بالألم، لكنه كان قد ترك وصيةً غريبةً عند أحد الملالي، يطلب فيها أن يوارى الثرى في حوش داره في قريته. منذ ذاك الوقت أصبح بيتنا في القرية منزل رجل ميت، كنا نزوره –نحن الأحياء- أيام الأعياد فقط. معها تذكرت قولاً لجدي:

- أعمار الأموات وحدهم الطويلة يا بني..!

لأننا –الأحياء- قصيرو الأعمار فقد أوصى جدي أن يدفن –حين يموت- في منزله.

كنت أعيش خوفاً مجهولاً في تلك السنين. حيناً كان مقتل جدي يرتسم أمام عيني في المنام، وحيناً كان ذلك المسدس في يد والدي ينفجر أمام عيني ويقتلني. استقر بنا المقام في مكان، وظلت عيوننا معلقةً بمكان آخر، تتلفت دوماً، وبخوف لا مثيل له، إلى أرض خرجت من تحت سيطرتنا. انقلب والدي رأساً على عقب منذ حلولنا بالمدينة. يصرخ فينا، يغضب لأتفه الأسباب، كان بمقدوره أن يضرب أمي إذا ما غضب، مع أنه لم يرفع يده عليها سابقاً. بعد رحيل جدي، انشغل والدي أكثر بمتطلبات العائلة،

وهذا ما أنساه بعض همومه. الألم الذي صاحب ذلك الظلم والإرهاب الذي عانيناه، تسلل إلى أعماق الروح يوماً إثر يوم. في الظاهر كان كل شيء يبدو طبيعياً، أما الجروح الكبيرة فكانت تتفتح في الداخل، تتقيح، تتقرح، تلتهب، تتنمل، تندمل وتتحول إلى خوف..

جيوش الجراد قادمة، ورماد القلب تذروه الرياح.

مع انقطاع أخبار ليلى، دار الحديث مرةً أخرى عن هجمات الجراد. امتلأت الصحف والتلفزيونات والإذاعات بصور الجراد. قدمت عشرات البرامج عن تاريخ الجراد، عن أشكالها وأنواعها، وعن أحجامها. يومياً يدور الحديث عن الأخطار التي ترافق مجيء الجراد. تضاعف خوف الناس. من يسمع تلك الأحاديث يظن أن الجراد قد طوّق حدود البلد بالآلاف، واليوم أو غداً سيشن هجوماً كاسحاً على أبناء البلد وسيلتهم الأخضر واليابس.. في تلك الأيام، أطلقوا مئات الجنود في الشوارع للبحث عن الذين يشبهون الجراد. أظهروهم على شاشات التلفزيون. اعترفوا أنهم يريدون تخريب هذا البلد وتدميره،

وأعلنوا ندمهم على بيع ضمائرهم. وهكذا فتحت أماكن خاصةً على طول البلاد وعرضها، وعمل الآلاف بحجة «اجتثاث الجراد العدو». واستخدموا كل رجال الشم وكتبة التقارير. إذا ما أقبل مولود جديد على هذه الدنيا فإن والديه كانا يتحكمان في تشكيل ملامحه. والرضيع الذي كان يحمل ملامح الجراد، كانت الأم ترميه على باب مسجد ما بعيداً عن أنظار الناس، تتبرأ منه، حتى لا تحل عليهم لعنة الحكومة والسلطات. صار «التجردن»(*) من أعظم الجرائم، بحيث يقود صاحبه فوراً إلى حبل المشنقة. من يكره الآخر يرمي في بيته جراداً ويدل رجال الشم إلى بيته. كل بضعة أشهر تضع الحكومة كافة عناصرها في حالة استنفار تام، وتعلن صارخة:

*) التشبه بالجراد، الأشتباه بكونه جراداً Kulîbûn.

- جيوش الجراد قادمة!

طبعاً يلزم المال لمحاربة جيوش الجراد، وهذا المال يجب أن يدفعه الناس حتى يحموا الوطن والدولة. توتنو هو الوحيد الذي كان جوابه في رفع سيفه الخشبي:

- بالنسبة لي لا حاجة لدفع المال، سأقضي على الجراد بسيفي هذا!

تأبط كتابه وأكمل:

- الكلمة الأهم هي «المصلحة». أساس السياسة كلها هي كلمة واحدة، وهي هذه الكلمة «المصلحة». طبعاً لا مصلحة لأحد على وجه الأرض مع الضعفاء. ولأننا ضعفاء، لا أحد معنا. ومادام هذا القانون ساري المفعول فإن شعاري سيبقى «ضد العالم». سأعود إلى الانتحار حرقاً، هل تعلم ما هي العلاقة بينه وبين الأمل؟

إنهما كالليل والنهار، يختفي أحدهما بظهور الآخر.

أساس التجردن هو المصلحة.

تركت توتنو مع المحاطين به. ورحت أتمشى مهموماً في شوارع «سوق الحرامية». إن ليلى قد أفرغت حتى «سوق الحرامية» من الناس. مات الوقت في ذاكرتي وروحي. اختلطت عليّ الأمور صارت أيامي سنوات وسنواتي دقائق. ينضح وجه سمكو وقادو بالبشر يوماً إثر آخر، أما أنا فأذبل.

سمكو يقضي وقته بين حلب وعفرين. يذهب مع محبوبته شيرين إلى عفرين. وبمجيئه إلى قامشلو يجمع المشاهد الجميلة للجبال وأشجار الزيتون العفرينية، ويوحد بين خضرتها وخضرة عيني شيرين عندما يتحدث:

- عفرين قطعة من الجنة. روحي فداء لأشجار الزيتون!

يقطع قادو حديثه:

- ها سمكو، وكأن دنياك كلها قد اقتصرت على شيرين وأشجار

الزيتون؟! لم يبق سوى أن تستحم بزيت الزيتون.

- روحي فداء لتلك الخضرة!..

- وروحك فداء لي أيضاً يا سمكو!

يود سمكو أن يجرجر قادو إلى الحديث عن الحب:

- ألم تحب يا قادو؟ لم كل تلك الفتيات في جامعة دمشق إذاً؟

اختصر قادو كل قصصه في جملة واحدة:

- الحصول على قلب فتاة كردية في الجامعة أصعب من الحصول على استقلال كردستان!

ضحكنا، لكن سؤال سمكو قد زرع أسىً في قلبي:

- أين بقيت ليلاك يا مجنون؟

أجبته بقلب مهموم، وحنجرة ناشفة:

- رؤيتها أصعب من رؤية سجين سياسي.

سار بنا سمكو باتجاه كالو:

- إن ما أشتاق إليه في هذه المدينة هو قصص كالو.

كان قادو وسمكو يقولان إنهما يشتاقان إلى قامشلو ويحسدانني على حالي. وكنت أحسدهما على حالهما؛ إنهما يذهبان إلى المدن البعيدة وأنا باقٍ في مكاني، أدرس في قامشلو إعداد المعلمين. أما كالو فلم ينس وعده القديم وبدأ برواية قصته الجديدة:

- أجل، قُضِيَ على الانتفاضة. هرب الجميع وبقي حمزة آغا منغوري وحيداً.

سأل أحد المستمعين عن عبيد الله نهري. مد كالو يده بهدوء إلى صندوق يشبه قفصاً، أخرج منه حمامة بيضاء وأطارها. طلب منهم أن يراقبوها:

- من منكم يعرف ما هي هذه الحمامة؟

تلاعبت الأسئلة في عيون المستمعين، ولم يحر أحدهم جواباً:

- هذه الحمامة هي روح النهري الثائر. ستجوم حولنا دائماً، ستأتي لنجدتنا.

مع جملته هذه أزاح كالو دمعةً ساخنةً عن وجهه، وعاد إلى قصة حمزة المنغوري.

أرسل حسن علي خان، والي مهاباد في تلك الفترة، رسالةً بخط يده بوساطة أحد أصدقائه، إلى حمزة، يعاهده فيها على أن يسلمه مقاليد السلطة في حكومة كردستان في سننداج ومهاباد، بشرط أن يأتي حمزة إليه. ولأن حمزة -مثله- رجل عشائري فقد صدقه، إنما كان له هذا الطلب:

- سآتيه إذا ما عاهد على أن يفي بوعده.

وافق الوالي مباشرةً على طلبه، وكتب على جلد القرآن الكريم «مادام هناك روح في هذا الجسد، وما دمت على قيد الحياة فإني سأحميك، وسأفديك بروحي إذا اقتضت الضرورة.» ختم عهده هذا بختمه الخاص وأرسل ذلك القرآن إلى حمزة المنغوري.

قال له ابن أخيه سوارو:

- لا أريد أن تذهب إلى هذا الرجل يا عمي! مع أنه عشائري لكن لا يؤتمن جانبه. كيف يؤتمن رجل قتل أباه!؟

- ما الذي دهاك، حتى تخاف إلى هذا الحد؟

- سأرافقك كي لا تقول عني أنني جبان، مع أنني أعلم أننا سنُقْتَل..

في تلك اللحظة دخل اثنان من رجال الشم بين المستمعين، يبحثان عن الذين يشبهون الجراد، مع أنهما كانا أكثر الناس شبهاً بالجراد. صوب كالو

نظرة إليهما، قطع رواية القصة، انشغل بآثاره وما حوله. فهم المستمعون إشاراته وانفضوا من حوله؛ واحد بعد الآخر.

أما أنا فقد انشغلت بقادو. كان مهموماً لأنه لا يستطيع إقامة معرضه في الشام. وكذلك مشمئزاً من كثرة تردد كتبة التقارير ورجال الشم على الأماكن المنسية والزوايا الميتة. ومن ناحية أخرى فقد كان سمكو يروي لي قصة سارة وزعل شيرين.

لا أدري كيف حاولت سارة إغوائي. قلت لها دوماً أنْ لي صديقة، لكنها لم تكن تصدق، وإنما كانت تقول، إنك تدّعي ذلك كي تبعدني عنك، إنك تخاف النساء. لسارة فلسفة خاصة عن الرجل، تقول إن سر كل رجل يكمن في عضوين له؛ أحدهما عينه، والآخر ما تحت سرته:

- في أعماق عينيك ثمة عزلة عميقة، ولا أثر للنساء فيها، بقي أن أختبرك.

في زيارتها الأولى لي، وقبل أن تمنحني قبلةً من شفاهها فتحت سحّاب بنطالي. كانت تلك المرة الأولى التي أجد فيها رأس امرأة بين فخذيّ. تملّكني العجب. وراحت تنهشني عضاً. ها هي عدة شهور وشيرين معي، لكن لم أستطع أن أتخيل أن يتبعثر شعرها هكذا وبهذه الحرارة على فخذي العاريين. تملَّكَ الثملُ سارة ذات الشفاه الحارة إثر ذلك الصراع والجهد. بعد ذلك ثبتت عينيها في عيني وقالت:

- أما زلت عند قولك بأن لك صديقة؟ هذه هي المرة الأولى التي تلمس شفاه امرأة هذه المنطقة من جسدك. أعلم هذا جيداً.

ساره امرأة محيرة. ما عادت تتركني منذ ذلك اليوم، تقول لي أحبك، وأقول لها وأنا أحب واحدةً غيرك. مرةً غادرت بيتي بعد الظهر، وفي المساء جاءت شيرين. وبعد القبلة الأولى ابتعدت عني:

- رائحة امرأة أخرى تنبعث منك. اليوم كنت مع امرأة أخرى...

استغربت، وأنكرت، لكنها لم تصدق. كنت أحاول أن أبتعد تماماً عن سارة حتى لا أضطر إلى الكذب. لم أعد أفتح لها الباب. مرةً جاءت إليّ عند باب الجامعة، إنها أجمل مما كانت عليه، واضعةً طوقاً تثبت به شعرها:

- إني قادمة من بيتك. جئت أودعك.

- إلى أين ستذهبين؟

- قد لا يرى أحدناُ الآخرَ بعد الآن، لأني سأنتحر.

ضحكْتُ.

- من تنتحر لا تخبر أحداً. ثم، هل منعك أحد؟

- يا لك من قاسٍ!..

- إني أمزح.

- أنا لا أمزح. أريد أن أزورك للمرة الأخيرة.

- متى؟

- الآن.

- الآن أنا ذاهب إلى البيت عندي ضيف... إلى اللقاء.

ضيفي هو قادو. هذه زيارته الأولى لي في حلب. رآنا قادو ونحن نتحدث وكأن بيننا سوء تفاهم. بعد أن عدت إليه سألني:

- ماذا كانت تطلب هذه الفتاة؟

- تقول: إما أن تحبني وإلا سأنتحر.

رد قادو بجدية:

- فلتحبني أنا، وسأنتحر لأجلها.

انتقلت مع قادو إلى الجانب الآخر، صعدنا الباص لنذهب إلى البيت.

التفتت سارة وجلست جنبي. ابتسم قادو. ناولتني منديلاً أبيض وهمست:

- هذا لك.

- ما هذا؟

- نقود. أعلم أنك دوماً بحاجة إلى نقود لشراء الكتب الجديدة، أما أنا فما عدت بحاجة إليها.

- لمَ؟ ألأنك ستنتحرين؟

- أجل...

- إذاً اشتري بها كفناً!

أعدت لها النقود ضاحكاً. بقينا صامتين حتى الموقف المقابل للبيت. نزلنا أنا وقادو، نزلت هي أيضاً. بيتنا في الجانب الآخر من الشارع. كنا واقفين نحن الثلاثة، بانتظار أن يخلو الشارع، حين كررت السؤال:

- هل تحبني؟

- لا.

- إذاً أنت السبب فيما يصيبني.

ما كنت أستمع إليها بجدية حتى تلك اللحظة. كنا واقفين، وأرتال السيارات لا تنتهي. أقبلت شاحنة كبيرة. سارت سارة ببرودة أعصاب متوجهةً إلى الشاحنة. مع صرير عجلات الشاحنة ارتفعت يدا سارة، وتعبثرت كتبها، أما هي فسقطت على بعد أمتار من مقدمة الشاحنة. ما أتذكره هو أنني جلست في مكاني. ما عادت ركبتاي قادرتين على حملي. اجتمع الناس حولي، ونقلوها في سيارة إلى المشفى. لاإرادياً تركت قادو وركبت سيارة. لا أدري لماذا مررت على شيرين، ولم أدعها تكمل غداءها، صعدت إلى جانبي، وفي الطريق أخبرتها:

- صدمت شاحنة إحدى صديقاتنا وسنزورها في المشفى.

اصفرّ لون شيرين، وامتلأت عيناها بالأسئلة، لكنها التزمت الصمت. في المشفى قالوا لنا إن سارة غائبة عن الوعي، لكن ليس هناك أي خطر على حياتها. انتظرنا حتى تستعيد وعيها. جاء شرطي وسأل عن درجة العلاقة بيننا، أجبته:

- إننا زملاء دراسة لا غير.

علمت أن مسؤول الشركة التي تتبع لها الشاحنة قادم، وأن السائق قد هرب ولم يسلم نفسه للشرطة بعد.

ساره ممددة على السرير غائبة عن الوعي، وقفت شيرين عند نافذة الغرفة وهي تبكي. التفتت إلي:

- وهذه أيضاً إحدى ضحاياك.

أدركت أنني ارتكبت خطأً بذهابي إلى شيرين قبل مجيئي إلى المشفى، وأن هذا سيكون سبباً للخصام والفراق. أفاقت سارة بعد ساعتين، ومع استعادة وعيها مدت يدها إلى رأسها وسألت:

- أين طوقي؟..

نظرت فيما حولها وقالت ضاحكة:

- أما زلتُ حية؟

لم تدع سارة أن يسجل الشرطي أي دعوى ضد السائق، وقالت إنها تتحمل المسؤولية كاملة، والذنب ذنبها. والحقيقة كانت كذلك. أوصلنا صاحب الشركة بسيارته إلى البيت، ترجلت ساره بقميصها الممزّق وجروح رجليها. طلبت سارة أولاً ثم طلبت أنا من شيرين أن ترافقنا إلى البيت، ردت عليّ بجملة واحدة:

- سآتي غداً، وسأعيد إليك كل ما لك عندي.

في اليوم التالي فتحت الباب، وجدت حقيبةً مليئةً بالهدايا والرسائل والأوراق. كانت شيرين قد وضعتها بالباب وعادت. عليّ أن أصالحها. من جهة فقدت شيرين، ومن جهة أخرى تملكني خوف عجيب من سارة. صراحةً كنت أخاف من القتل. ستقتلني ونفسَها ذات يوم. فكرت في تغيير البيت. في تلك الفترة زارتني مرة. دخلتُ المطبخ خلسةً وأخفيت كل السكاكين وعدت إليها. مدت يدها إلى حقيبتها:

- أحضرت لك هدية.

في تلك اللحظة خطر القتل على بالي. توقعت أن تخرج المسدس، وببرودة أعصاب، ستفرغ عدة طلقات في رأسي، ثم تفرغ ما تبقى في رأسها. بقيت عيناي معلقتين على يدها في الحقيبة. تجمد دمي حين لمحت ما ظهر من هديتها الحديدية. تزداد الرعشة في داخلي مع ازدياد انكشاف الهدية، بقيت في انتظار صوت الانفجار. تنفست الصعداء حين أخرجت الهدية كاملة؛ كانت ركوة قهوة. كانت تلك المرة الأخيرة التي تعرف فيها ساره عنوان بيتي، لقد غيرته ولم أخبرها بعنواني الجديد.

هنا انتهى حديث سمكو. بعدها استعرض ما ينوي القيام به، بداية يريد بعد عودته إلى الجامعة أن يذهب إلى شيرين ويعتذر إليها. فجأةً طلب أن نغير هذا الموضوع ونذهب إلى كالو. ارتحت لاقتراحه هذا، لأن كالو كان قد قطع رواية قصته في المرة السابقة. حين رآنا كالو وضع نايه على الأرض عند قدمه وأكمل سرد القصة.

- إنه صيف سنة ١٨٨١. في المرة السابقة تحدثنا عن سوارو؛ ابن أخ حمزة، وأنه لم يصدق وعود وقَسَم الوالي حسن علي خان. في الطريق نبّه عمه

ثانية، رد عليه العم:

- كيف نخاف من هؤلاء الجنود الجوعانين؟

كان الوالي، أي الحاكم الغدار، قد جهز كل شيء؛ إلى جانب خيمة الضيوف أعد خيمةً أخرى ملأها بالجنود الذين حفروا خندقاً في الداخل. دخل الوالي مع ضيوفه إلى الخيمة، قدم لهم الطعام، وخرج مع غلمانه. بخروجه أمطر العساكر الخيمة التي تحتها حمزة ومرافقوه بالرصاص. مع توقف الرصاص حاول أحد خدم الوالي الهجوم على حمزة وقطع رأسه بالسكين ليقدمه هديةً للحاكم، لكن حمزة لم يفسح له المجال، رغم جروحه التفت إلى الخادم الغدار وطرحه على الأرض جثةً هامدة. ثم أغمض حمزة عينيه. قطعوا رأس حمزة المنغوري وأرسلوه إلى طهران. سُرَّ شاه طهران كثيراً بهذه الهدية، وكافأ هذا الوالي ناكث العهد، بتوسيع سلطته على مناطق أخرى.

وهذه هي مسألة قَسَم الوالي؛ إنه وضع تحت ثيابه عصفوراً، وحين كتب قسمه: «مادام هناك روح في هذا الجسد، فلن أدع أحداً يمَسّ حمزة المنغوري.» إنه كان يقصد روح وجسد العصفور. وقبل أن يصدر الأمر بقتل حمزة ذبح العصفور، وهكذا برر الوالي الفهلوي قسَمه ذاك، وأراد أن يقنع نفسه، ويرضي الله. بهذا تنتهي قصتنا مرةً أخرى بالغدر والحيلة. مثل جميع قصصنا الماضية والتي ستروى لاحقاً. القصة اليوم هي قصة الجراد. القصة هي قصة إخافة أناسنا من مجيء الجراد. كفى. قد تصل القصة أحياناً إلى نقطة تفقد فيها لونها ومعناها. والآن مع عزف الناي تخلع القصة ثيابها وتتعرى، تصبح أكثر متعة...

حمل كالو الناي. نسي مَن حوله. عزف على الناي وكأنه لا يعزف لأحد غيره، انبعث من الناي أنين حارق. معه انطلق كالو إلى عصر آخر، زمن آخر. تركناه وحيداً مع خيالاته. الحديث عن الجراد ملأ كل الأمكنة. يقال إن الجراد سيخرج من مكان لا أحد يعلم من أين، وسيكون في توقيت مخطط

له. سيخرب كل شيء من جذوره، بدءاً من الالتهام ونشر الأمراض وصولاً إلى القتل. بمجيء الربيع تزداد القصص عن الجراد. عاد سمكو إلى حلب للدراسة الجامعية، وكذلك عاد قادو إلى الشام، وبقيت وحيداً مع التاريخ الحزين. لا أخبار عن ليلى. وقلبي يذبل يوماً بعد يوم ويفقد لونه، كوردة قديمة انقطع عنها الماء. لم يشاهد أحد ولو جرادة واحدة، ومع ذلك كانت ليالينا ونهاراتنا، دقائقنا ولحظاتنا كلها تمضي في الحديث عن الجراد. هاجم الجراد مناماتنا، جاء الجراد إلى أبوابنا، الجراد في كل مكان، ولكن لا تظهر جرادة للعيان على طول الوطن. فقط كان يقال إن جيوش الجراد قادمة إلينا، وقريباً ستقتحم سواد عيوننا وتحلّ بيننا.

انتفاضة أطفال الخوف، التي هزت... القلب.

رغم انقضاء أحد عشر يوماً من آذار عام ٢٠٠٤، إلا أن رائحة الربيع لم تكن تنبعث من المكان. منذ الصباح الباكر طغى شيء كالضباب على صدر قامشلو. حين تنظر إلى الشوارع تظن أن كتل الغيوم انبثقت من الأرض وانتشرت على أبواب المنازل كالعسكر. عادة، يخلف يوم الجمعة انقباضاً في قلبي، لذا ظننت أن يوم الجمعة هذا سيمر كسابقاته في صمت. لقائي بكالو في ذاك الصباح الباكر خلق لدي شعوراً آخر. لم يكن كالو يروي قصةً ولا يعزف على

ناي، فقط كان ينظر إليّ ويقول:

- إنها رائحة الموت.. إني أشم رائحة الموت.

جال في رأسي خواطر مختلفة. ارتسمت أمام عيني جيوش الجراد وهي تحاصر المدينة وتضع البلد بكامله تحت ظل أجنحتها. يرتسم التاريخ القديم والحديث كأفلام الرعب في مخيلتي. تذكرت أن طلابي منذ فترة ينتظرون مباراة اليوم. ملامح وأصوات هذه الوجوه العابسة التي تتجول في شوارع المدينة لا تشبه ملامح وأصوات الرياضيين. دخلوا المدينة بالمئات وبالألوف. كانوا يتجولون في الشوارع، وبزعيقهم وشعاراتهم يطلبون الموت للكرد وقادتهم. هل جاؤوا للعب مباراة أم لخوض حرب؟! تعلو قامة الأسئلة. جداول الحقد خلفت وراءها من دير الزور وحتى قامشلو أنهاراً من العداء. كانوا يتجولون داخل المدينة، ويطلبون من أهالي قامشلو تحرير فلوجه العراقية من الأمريكان. تتدحرج الأسئلة مع هذه الصرخات،

هل يحملون كرة أم قنابل؟.. هل هذا فريق كرة قدم أم فريق قتل؟ كان الزمن في ذلك اليوم يسيل من تحت أرجل أهل المنطقة كماء عكر. امتلأ إستاد الجهاد بالجمهور منذ ما بعد الظهيرة. في أحد جانبي الملعب آلاف الضيوف الذين ملؤوا جيوبهم بالحجارة، يا لهؤلاء الضيوف، بدل أن يحملوا وروداً وأعلام فريقهم حملوا العصي والأسلحة وصور دكتاتور مهزوم. يهددون مضيفيهم في عقر دارهم؛ يشتمونهم ويحتقرونهم. بينما كنت أفكر في هذا الحقد والبغضاء ارتسم مرةً أخرى أمام عيني سايكس الإنكليزي وبيكو الفرنسي، وكيف قسموا هذه الأوطان ببضعة خطوط، وكيف تحولت هذه الخطوط بعد رحيلهم إلى حدود مقدسة لدى سكان هذه البلدان! يبنون دساتيرهم وشرفهم وكرامتهم ومبادئهم على حماية هذه الحدود. وخُلِق واقع صار فيه قادة هذه الدول على استعداد لتقديم رؤوس ملايين البشر ودمائهم تضحية رخيصة في سبيل هذه الحدود المقدسة. يتقاتلون بفخر. يا ويله؛ من يحاول الاقتراب من هذه الخطوط المقدسة ويطالب بتغييرها، حينها يمكن أن يصبح خارج القانون، مجرماً، مذنباً، وإرهابياً، ويهدر دمه.

ما هذه الخطوط التي بعثرتَنا بينها أجزاء مجزأة يا سايكس؟

بأي حق سلَّطتَ علينا أمواج الحقد هذه؟!

أجاب خيال سايكس:

- لقد أدينا ما علينا من عمل وغادرنا يا أخ موسى، ولكن من أجبركم على ألا تتحابوا بعد رحيلنا!
- جذر المصيبة وأساسها هو تقسيم أراضي الله هذه وتوزيعها.
- إننا ككل الناس، حرصنا على حماية مصالحنا، ولم نكن نفكر بكم..
- كان بمقدوركم حماية مصالحكم بوسيلة أخرى...
- هذا ما رأيناه صحيحاً...

- إنك –على وجه الخصوص- فعلت كل شيء بذكاء. كنت على علم حتى بعشائرنا وقبائلنا يا مهدوم البيت! كيف أقمت كل هذه الحدود الحصينة على جسد وطننا الجريح؟

- ما قمنا به راح وانتهى... ها إني ميت، وأحفادي بعيدون عنكم. اضبطوا مسائل حدود الدول والبلدان حسب ما ترونه مناسباً.

- بعد ماذا؟ إضافةً إلى أربعمائة عام على أطلال التركة العثمانية، أحضرتم خناجركم وسكاكينكم ومزقتم جسد هذه الفريسة المسبية.

- رحم الله البارحة! أنتم أبناء اليوم، تفضلوا وأصلحوا فيما بينكم....

مع هذه العبارة واجهني كالو. وجه فوهة نايه إلى الأرض وقال ثانية:

- اليوم تنبعث رائحة الموت...نعم.. الموت!..

شعرت أن كالو هذه المرة يرد على سايكس بدلاً مني. سايكس الذي استفاق في تلك اللحظة من بين غبار التاريخ وسكن رأسي. بدفاعه عن نفسه كان الحقد في داخلي يتضاعف تجاه سايكس. وفي الخارج كان لون سماء قامشلو قد أصبح بلون أجنحة الجراد. مع تغير لون السماء، وقبل أن تبدأ المباراة، بدأت مباراة الحجارة. انكسر رأس هنا، وآخر هناك، واختلطت الأمور. ما عاد أحد يهتم باللاعبين في الأسفل الذين بدؤوا يستعدون للفوز ويجرون تمارين التسخين. وبودلت الأدوار، جرى اللعب بين أمواج الناس الذين جاؤوا لمساندة فريقهم. بدل الكرة الكبيرة كانت الكرات الحجرية الصغيرة تتطاير في الهواء، تسمع صوت كسر الرؤوس، الأيادي، الأرجل، الأقدام، الظهور. ما عدت أميز إن كانت حجارة تطير في الجو أم جراد. سرب يطير نحو اليسار، وآخر باتجاه

اليمين. انتشر الخبر كانتشار النار في الهشيم. من بين جموع الناس، وتحت ظل هذا الصراع القاسي، علا صوت:

- يقول الراديو إن ثلاثة أطفال ماتوا تحت الأرجل....

مع انتشار هذا الخبر، تضاعفت الشتائم والشعارات وارتفعت حدة القتال. مع أن بعضهم قال إن الخبر كاذب، لكن من يسمع في مثل هذا الطوفان؟! دخل مئات العساكر الملعب وكأنهم خرجوا من باطن الأرض، كي يزيدوا من حرارة هذا اللعب. طوقوا «الضيوف» لحمايتهم، وواجهوا أبناء المدينة، ارتفعت لعلعة الرصاص وسال الدم... وأرض قامشلو العطشى شربت دماء أبنائها بسرعة. سقط شاب هنا وآخر هناك، وارتفع صراخه:

- أيها الكلاب الشوفينيون!

هب رفاقه لنجدته. أصابته طلقات العسكر، كانت الإصابة قاتلة، وكانت الرائحة رائحة الموت.. سقط الشاب جثة من أيديهم، لم يستطيعوا إيصاله حياً إلى المشفى. غمس أحد رفاقه يده في ذاك الدم وارتفع الصراخ طالباً بالثأر:

- ماذا ننتظر بعد الدم؟

حوصر الملعب شيئاً فشيئاً بالجنود. قسم من المهاجمين «الضيوف» دخل بين الناس وخرج معهم، وقسم بقي تحت حماية الجنود. ولم يعرف أهل المدينة كيف عاد هؤلاء الضيوف القتلة إلى بيوتهم. حمي وطيس المعركة بين الناس الذين سلاحهم الأيدي والقلوب والحجارة وبين الجنود بكلاشنكوفاتهم التي لا تخطئ الهدف، هؤلاء الجنود بلباسهم الخضر إلى جانب الشرطة المدنية، إضافةً إلى قوى السلطة التي حملت السلاح ووقفت في وجه الناس الغاضبين. تتحول الطلقة، مع سماع صوت انفجارها، إلى جرح، والجرح إلى مائة جرح... يعلو الأنين من جهة، ومن جهة أخرى تعلو الصرخات والاستغاثات. نشر انفجار الطلقات، والدمار، وفوضى الزحام ظلاله على كل شيء. أوصلوا بعض الجرحى إلى المستشفيات. وبعض أسلم الروح قبل أن يصل إليهم أحد. ارتفع عدد المتوفين، بعض

يقول ثلاثة، وآخرون يقولون أربعة.. اكتظت المشافي وما حولها بالناس، وكذلك عيادات الأطباء. كل يسأل عن جرحاه. ولأنهم لم يستطيعوا مواجهة العسكر والشرطة فإنهم اتجهوا إلى الشوارع، يحملون الحجارة ويهدون الجدران. مقابل جامع زين العابدين واجهوا تمثالاً للرئيس الخالد (الميت منذ عدة سنوات)، صار التمثال هدفاً لمرمى حجارتهم التي ترتد تاركةً أثرها في التمثال الصلب، الذي بدا مقضوماً، لكنه تشبث بمكانه ولم يسقط. تابعت الجماهير الغاضبة مسيرتها ومعركتها مع الجدران التي تشتمّ منها رائحة الحكومة. بالعصي والحجارة قطعت حركة المرور.

هذا يضرب، وذاك يحطِّم، والآخر يحرق... انفجر الغضب والحقد المتراكم خلال عشرات السنين، علت شرارات من تحت رماد أربعين سنة، تحولت كل شرارة إلى نار، وصارت كل دائرة حكومية هدفاً لتلك النار؛ شارك الصغار من جهة والشباب من الجهة الأخرى بينهم الرجال والنساء.. نشر الاستغراب ملامحه على كل الوجوه! امتد شريط الأسئلة ما بين البيوت ومكان القتل والإصابة بالجروح:

من هم القتلى والجرحى؟

تبدو السماء عابسةً كالحة، وكأنها ارتدت لباساً خاكيّ اللون، تنظر ببرودة أعصاب إلى الدم الحار السائل. لم تنتشر قطع الغيوم في السماء وحدها بل انتشرت على الأرض أيضاً. أغلقت المحلات التجارية بدءاً من هلالية وباتجاه الأعلى، هناك حركة سير غريبة، معها تنتزع أحجار الشوارع، تحطم في كل لحظة منطقة. توحد الغضب الجماهيري في موجة واحدة، وأصبح التاريخ نبعاً لذاك الغضب. مع حضور التاريخ يمتزج الحقد بصمت مئات السنين، ويتحول إلى فيضان لا بداية له ولا نهاية، عصيٍّ على الإيقاف. رأيت بعينيّ كيف كان الناس يقتلعون حجارة الطرقات والشوارع، وبقايا الأطلال، ويتخذونها سلاحاً وتروساً، يريدون الانتقام من

هؤلاء الضيوف القتلة، القادمين محملين بالحجارة السود من مدينتهم. أما الشرطة فهم أيضاً «ضيوف» سابقاً. إنهم ليسوا من أهل المنطقة ولا يعرفون لغتها من جهة، ومن جهة أخرى يكنون الحقد والبغضاء لأبنائها. اتسع الغضب وتدفق في الشوارع، يحطم كل ما يذكّرهم بالشرطة وبالحكومة. تحولت الفواكه والخضار المتبقية في بعض المحلات المفتوحة إلى أسلحة بيد الجماهير الغاضبة. من الممكن أن يصير أي شيء وكل شيء إلى أهداف للهجوم. وصلت الأنباء عن مقتل أربعة ومئات الجرحى. عاد الناس باتجاه بيوتهم في ذلك المساء، إلا أن المئات من الشرطة المدنية ومن العسكر لم تغادر. رغبتُ في الذهاب إلى عامودا. لم تستطع السيارات المرور نتيجة زحام الناس على الطرقات. أجلستُ أحد الجرحى مكاني في السيارة. وأُسعِف سريعاً إلى المشفى. حُطِّمَت السيارات المشبوهة. يبدو أنها حركة دون تنظيم، لذا تنوعت الأحداث، وفي كل منطقة اتخذت شكلاً مختلفاً. كان توتنو قد نزل إلى الشارع في ذلك المساء، يحارب الحيطان. انفجر نبع غضبه، وراح يشرح فلسفته بصوت عال:

- هذا هو تخريب النفس الإنسانية من الداخل. اليوم تظهر النتيجة. تحطمي أيتها الحيطان، انطقي أيتها الحجارة، قل شيئاً أيها التراب!

وراح يضرب الأرض تحت قدميه مرةً بسيفه وأخرى برجليه مهدداً:

- سأرميك يوماً ما كعلكة بين أسناني أيها الوطن، سأعلكك. ألف عام والقول الفصل -كما يذهب المثل الشعبي- لـ.. «الذهب، القوة، وفوهة البندقية». ما من صوت سوى صوت القوة! فليُسمع يوما صوتُ فاقدي القوة أيضاً! فليتوقف العالم عن معاداتنا يوماً واحداً.. فقط يوماً!

دخل توتنو وسط زحام الناس، يشجعهم، يتقدم الصغارَ بسيفه، مهاجمين الدوائر الرسمية:

- فليتحطم كل مكان تتكلم فيه القوة! الحق موجود، والقوة موجودة! التبغ موجود، والنار موجودة!

انتبهت إلى نفسي فوجدتني، كالآخرين أدور في مكاني. أعلنوا أسماء القتلى، وتحدثوا عن الجنازة الجماعية التي يشيعونها غداً. أرادوا أن يقوموا بمسيرة كبيرة في اليوم التالي. وقسم مشغول بالجرحى، فجأةً وجدت نفسي وحيداً. ما أن رفعت رأسي حتى رأيتني وجهاً لوجه أمام رجل أشيب الشعر، أبيض الملامح، حين وجدته يبتسم لي حييته. مع رده تحيتي علمت أنه هو بذاته وليس خياله؛ إنه سايكس:

- أنت هنا اليوم؟...

- إنني هنا دوماً، لكن لا أحد يراني، سوى.شخص مثلك لا يستطيع أن يبعد التاريخ من ذاكرته..

- ظننتك ميتاً.

- أنتم وجيرانكم خلدتموني، إني مدين لكم بخلودي، هذا من فضلكم.

- لمَ ظهرتَ اليوم؟

- ظهرتُ غضباً. إنكم لا تتركونني أرتاح يا موسى!

- إنك وصديقك...

- لا تحملونا وزر أخطائكم. ها هي الدماء، وها إنكم ترون السلاح، وفي أية أيادٍ هو.

هيأت نفسي لخداعه، ورحت أفكر في كيفية التعرف إلى مكانه، لأستطيع الثأر لأكثر من تسعين سنة. تسعين سنةً من القتل والألم والعذاب والغم... لكن سايكس غاب عن عيوني قبل أن أبدأ خطتي. حاولت تذكر لون عينيه، لكنني لم أفلح. جتى أنني لا أتذكر إن كانت له عين أصلاً. لا أعلم إن كان أعمى أم أنني نسيت لون عينيه. ضحكت من نفسي، وتملكني خوف

من أن أكون قد أصبت بمرض ما. أين أنا من سايكس أو بيكو؟! صادفت كالو، كان في وضع مختلف؛ ينفخ كرته بمنفاخه، يتصبب عرقاً. كانت كرته مثقوبة. رآني، فرفع رأسه:

- ألم أقل لك إنها رائحة الموت؟! ها هو الموت أقبل بنفسه. اذهب إلى البيت يا موسى، اذهب وكن حذراً من الرصاص القادم من الخلف! اذهب.

في طريق عودتي إلى البيت، كنت أصادف إما العساكر والشرطة وإما مجموعات من الأيادي الغضبى تحمل الحجارة والعصي. انقلبت المدينة رأساً على عقب. عاد إلي ذلك الألم المنبعث من تلك البثرة في أسفل ظهري. حين التجأت إلى أحد الجدران رغبةً في استراحة قصيرة، ظهر أمامي، كحية ميتة، ذلك الرجل الملثم ذو العينين الصفراوتين. لم يشعر بأني رأيته. التجأ إلى الجدار المقابل. راودتني فكرة أن أخادعه بالالتفاف عليه من الخلف وأمسك به. دويّ قادم من كل الجهات، ارتفع الدخان والغبار في تلك الشوارع، بين ذلك الدخان والغبار استطعت الاقتراب من جداره، أردت أن أفاجئه وأزيل اللثام عن وجهه، قفزت قفزةً كبيرةً باتجاه الجدار من الخلف، اصطدمت به وجهاً لوجه. تملكنا الخوف. اعتذرت منه وتابعت طريقي إلى البيت. كان جدي ما يزال بانتظار ذلك السلم النوراني الذي سيرسله الله إليه، ليذهب ويحقق حلمه.

لا أعرف كيف غفوت في تلك الليلة، القطع الحديدية ورأس سايكس المقطوعة لم تسمح لي بالنوم. ما أن أغمض عيني حتى تقبل طائرة بيضاء تحملنا إلى السماء السابعة. ثم تهب عاصفة هوجاء على ركاب الطائرة، وتبعثرهم في الهواء. أتقلب في ذلك الفراغ السماوي. يقترب من يدي الحديد مربع الشكل. أتمسك به بكل قواي، وأُسَرّ من حظي السعيد على أن الله أرسل إليّ هذا الحديد المربع. يطوق الحديد رقبتي، ويبقى رأسي

خارجاً، بانتظار الوصول إلى الأرض، لكن الأرض تبتعد وتبتعد. والحديد يضيق الحلقة على رقبتي شيئاً فشيئاً. شعرت بألم حاد في حنجرتي. أحسست أني أختنق. استفقت من النوم وجدت نفسي على الأرض وفي الفراش. وقبل أن أهدأ أعاد الضجيج وأصوات الجيران أحداث أمس إلى ذاكرتي. عليّ أن أذهب إلى جامع قاسمو؛ المكان الذي سيصلي فيه الناس على القتلى، بعدها سيتجهون إلى المقبرة حيث يوارونهم الثرى. الشخص الأول الذي صادفته كان كالو أيضاً. قبل أن أحييه نظر إلي بعينين مليئتين بالدموع، وقال:

- تنبعث رائحة الموت، الموت.. لا تنبعث من جهة المسجد وحدها، ولكن من الجهات الأربع يا بني، الجهات الأربع!

حين وصلت إلى الجامع كان عشرات الألوف من الناس قد تجمعت. أربعة أجساد ملفوفة بالعلم الكردي الأخضر والأحمر والأبيض والأصفر، مرفوعة

على الأيدي. في تلك اللحظات ينتاب المرء شعور خاص، لا أعلم إن كان ذلك رهبة الموت أم شيء آخر، وعلى الأخص أن هذه الأجساد، التي أنهى رصاص العسكر آجالها، قريبة، جاهزة. أمواج من الرؤوس تجري نحو الشرق. مع كل خطوة تكبر الأمواج، تتسع، وتطول. اختلط الكبار والصغار. لم يبق أحد في بيته. مع اقتراب جنازة الأجساد الملفوفة بالألوان ترتفع الزغاريد من أفواه النساء الواقفات عند أبواب منازلهن، وتنحدر الدموع من أعينهن. تعلو الشعارات المتنوعة والمختلفة. يبدو أنه فيضان عفوي. مئات الألوف من الأصوات تتحول إلى صوت واحد وتصيح (عاشت الحرية!). بعض يرفع صور الشهداء، وبعض يرفع صور رؤساء أحزابهم. أغلبية الناس الذين تحولوا شيئاً فشيئاً إلى فيضان، كانت أيديهم خاويةً لكن قلوبهم ملأى. يبدو أن الفيضان البشري أصعب وأثقل من الفيضان المائي، إلى

درجة أنه كان يسقط كل تمثال يصادفه. على امتداد رقعة الوطن هناك آلاف التماثيل للقائد الراحل ولابنه الراحل. منذ أكثر من أربعين عاماً والناس يخشون ملامسة أي تمثال، أما اليوم فقد سقط ذلك الخوف وسقطت معه التماثيل. النعوش الملفوفة بالأعلام الملونة حولت الناس إلى أمواج من نار. مع انطلاق الحشود المتزاحمة ملأ الدويُّ الأرضَ والسماء. وسط المسيرة التي ألقت تراجيديا الموت والقتل بظلالها عليها، جرت حادثة منحت النهارَ لوناً آخر؛ وهي أن العقال كان يُخْطَف من فوق الرؤوس ويطير في الهواء. ما أن يرى أحدهم عقالاً على رأس حتى يهجم عليه، ما كان قصدهم صاحب العقال، إنما يكتفون بأخذ العقال ورميه في الهواء. لم يبق عقال أسود على رأس في ذلك اليوم. رجل متوسط العمر هو الوحيد الذي نجا من هذه الحادثة، رآه شاب في مقتبل العمر، تقدم نحوه:

- هل ستعطيني العقال أم أخطفه، يا عم؟!

لف الرجل المسكين عقاله ووضعه في جيبه. ازداد الناس حماساً، علا صياحهم مع التصفيق. استل توتنو سيفه ونزل إلى الميدان، أصبح جزءاً من الجماهير الغاضبة التي تسقط وتحطم كل ما تصادفه في طريقها، حتى إشارات المرور لم تنجُ من سيف توتنو:

- إنه الدمار، الدمار! يجب أن يزال كل شيء حتى يُبنى من جديد...

رمى طفل بنفسه أمام توتنو وقال له:

- لا تكسره يا خال، إنه أخضر وأحمر وأصفر!

رد توتنو غاضباً:

- إما أن تضاء الألوان الثلاثة معاً وإلا فلا!... هؤلاء لم يصنعوا لنا شيئاً نافعاً حتى يصنعوا لنا مثل هذه المصابيح العاطلة.

وصلنا إلى مركز الجمارك، وقبل أن نجتازه ارتفع منه الدخان. كل شيء

يحترق. تمزق الخوف.. ومع ذلك فإن كل من كان يقترب من الجمارك المحترقة كان يسرع الخطى. في تلك الأثناء تفرقت أمواج الناس الغاضبة، وتشكل فراغ في ذلك التقاطع؛ ملتقى الشوارع الأربعة. في ذلك الفراغ قابلتنا أربع سيارات تحمل الشرطة المدنية حاملين أسلحتهم، وبدؤوا بإطلاق النار. ومن ناحية أخرى راح العساكر -الراكبون في سيارة بيكاب- يطلقون الرصاص بين أقدام الناس هنا وهناك. سقط الصغار على وجوههم، النساء والشيوخ يسقطون وينهضون ثانية. ارتفع الصياح والصراخ واختلط الحابل بالنابل... بعض أسرع لإسعاف الجرحى، وبعض هرع نحو القتلى.

هكذا وبقوة السلاح فرقوا الناس.

لم يبق أمام الناس سوى أن يحملوا النعوش، ويخففوا من عدد القتلى.

في تلك الأثناء كنت مشغولاً بإصابة توتنو البليغة. لقد أصيب في عضلة رجله اليسرى، والنزف لا يهدأ. اصفرّ لونه، ومع هذا فإنه مصر على ألا يقع سيفه الخشبي من يده. استطاع، في ذلك الوضع الحرج، وضْعَ سيفه تحت نطاق بنطاله. بصعوبة أوصلناه إلى مشفى فرمان. هناك رأيت ثلاثة عشر جريحاً. لم تبق أسِرَّة خالية. الناس تتبرع بالدم من جهة، ومن جهة أخرى يعالج الأطباء بعض الجرحى على الأرض. استغربت وتملكني العجب من هؤلاء الناس الذين كانوا، في الأيام السابقة، يهددون ويتقاتلون من أجل دجاجة أو بضعة قروش، واليوم كل واحد مستعد للتبرع بدمه للآخر. وبعد تأمين توتنو في المشفى عدت إلى مجموعات الناس التي بقيت مرافقةً للجنازات. في هلالية رأيت ثلاثة نعوش فقط. لا أعرف أين بقي الرابع. حل المساء وتفرق الناس شيئاً فشيئاً. كانت قامشلو كخلية نحل في تلك الليلة. يرتفع عدد الجنود في الشوارع. المدينة في وضع كأنها خارجة للتو من حرب ضروس. هناك حركة نصف علنية. كثير من الناس نقلوا جرحاهم إلى منازلهم خوفاً من العساكر والمخابرات.

دماء قامشلو تغلي..

يزداد نبض قلبها.

تحنو على أبناء الخوف.

الذين يرغبون في طمأنة بعضهم بعضاً.

عيناها مليئتان بالدموع وهي في انتظار شيء ما. كانت قامشلوكي جريحةً في تلك الليلة.

في الطريق سمعت وقع خطوات بطيئة خلفي. ساورتني مخاوف من الرجل الملثم ذي العينين الصفراوتين. قلت في سري:

- سأقتله اليوم، وأرتاح إلى الأبد. في يوم كهذا يضيع القاتل.

التفت إليه فجأة، ثانيةً صادفت كالو. كان يحمل نايه كأحد أشباح الليل، وحدق في عينيّ:

- إني أتبع رائحة الموت.

كان كالو متجهاً صوب عامودا.

ليلــة البارحــة، رأت عامــودا في المنــام دمــاً، ورأى القلب في المنـــام جراحاً.

مع انتهاء مباراة الدم التي جرت في قامشلو أمس، شهدت عامودا، جارتها التي تبعد عنها ثلاثين كيلومتراً، حركة خفية. ليلة أمس كانت شوارعها وأزقتها في الانتظار، وقد استقبلت مجموعة من الجرحى. هذا الصباح، تجمع الناس في الشوارع دون سابق تخطيط. كانت هذه البلدة الصغيرة والعتيقة تغلي منذ الصباح الباكر. لا أحد يعلم كيف نام أهلها ليلة البارحة. وقد كانت أحلامهم تلك الليلة حمراء؛ لأنهم غفوا على أصوات الرصاص وجلبة القتل. جلب صباحهم معه آلاف الأسئلة. بداية أرادوا القيام بمسيرة استنكارية، لكن رغبة الذهاب معاً إلى قامشلو جمعتهم. رجال الشم، ورجال السلطة المسلحون لا يريدون ذلك. منذ أربعين سنة والمسيرات والمظاهرات ممنوعة –حسب القوانين- طبعاً باستثناء المسيرات التي يخرج فيها الملايين، ويرفعون شعارات نارية من أجل الرئيس الخالد، والكل يصيح وبصوت واحد بأنه مستعد للتضحية بنفسه من أجل الرئيس. لا أحد يتخيل القيام بمسيرة معارضة، أو استنكارية دون أن يضع نصب عينيه فقدان نفسه وعائلته حتى الجد السابع... لكن، ها قد تجمع الناس اليوم، جثث أولادهم قريبة منهم –في قامشلو- على الأرض. لقد

سال الدم الحار، جموح خفي مجهول يطل برأسه من تحت رماد غطاه أكثر من أربعين سنة. يزداد اللغط. تجمع عدد كبير من الناس. لا توجد سيارات ولا باصات للذهاب إلى قامشلو. وربما تكون قد مُنِعَت. قالوا لبعضهم:

- سنذهب سيراً على الأقدام...

انطلق المسير من مقهى داري. اتجهوا نحو الشرق قاصدين قامشلو البعيدة. بعد أن اجتاز الناس «مولّد» الكهرباء، أراد الجنود إرجاعهم، لكنهم تابعوا المسير. قبل الخروج من المدينة، أي في بوابتها، توجد مفرزة الأمن السياسي، هناك، وعندما أرادوا منع المسير قُذفت الحجارة، أطلق الجنود وقوى الأمن الرصاص من فوق الرؤوس. تصادموا؛ الناس بحجارتهم والجنود والأمن بطلقاتهم. وفي النهاية أجبروا المسيرة على التراجع. ومع عودتهم إلى وسط المدينة، هاجم الناس مراكز دوائر السلطة. أغلق الأعضاء الأبواب ومكثوا في الداخل. وعليهم إما أن يخرجوا ويقتلوا الناسَ بالمئات، ويُقتَلوا هم أيضاً، وإما أن يمكثوا في الداخل. يبدو أنهم اختاروا الخيار الثاني. أحرقوا سيارة الدائرة أمام الباب، أحرقوا البلدية، علا الدخان والنار من المصرف، اتجهوا إلى المخفر، صوب الجنود السلاحَ نحوهم كي يرجعوهم نحو الوراء. قامت القيامة، ولم يستطع أحد إرجاع أحد.. فاضت أمواج الناس على الجنود قبل أن يتمكنوا من تلقيم السلاح، وأمطروهم بالحجارة وقطع البلوك. أصيب جنديان وهرب الباقون. إصابة أحدهم بليغة، مميتة. اتجهت الموجة نحو مقر الحزب الحاكم، إنه حديث

البناء وكبير. كان في داخل المقر كريم ابن الخمسين عاماً إضافةً إلى منصور، المعروفان من قبل الناس. صاح أحدهم من وسط المسيرة:

- اخرجا قبل أن تلتهمكما النيران!

رد كريم:

- لن نخرج، وسيكون حسابكم عسيراً!..

جرجرت مجموعة من الشباب كريم الأشيب وركله أحدهم في مؤخرته وقال له:

- كفاك هذا!

رموه خارجاً. سكبوا برميل المازوت وأشعلوا فيه النار. خاطب أحدهم منصوراً:

- الآن، لا تخرج!

رمى منصور بنفسه من النافذة، وتسلقت الجدرانَ نارٌ مجنونة. انتشرت النيران بسعادة في المبنى الحديث، اتسعت، ارتفعت، واستطالت، واستطالت، وامتدت إلى المركز الثقافي العربي وأحرقته. تهاوى التمثال المقام عند مدخل المركز، وحصدت النيران حتى مؤسسة بيع الإسمنت. تشابكت الأمور ناحية المخفر، حين صوب رئيس المخفر مسدسه نحو حشود الناس الغاضبة، أمطرت الجماهيرُ الجنودَ بالحجارة وقطع البلوك. أصابوا جندياً إصابةً بليغة، وارتفع أنين رئيس المخفر نتيجة الإصابة المميتة. في عامودا محكمة واحدة وهي محكمة الصلح، وهي عبارة عن غرفة طينية صغيرة، التهمها الحريق أيضاً. بعدها، اتجهوا نحو التجنيد -مكان سوْق الشباب إلى الجيش- خرج إليهم الموظف ورجاهم ألا يخربوا شيئاً، مقابل تنفيذ طلباتهم. حين تقدم إليهم الضابط وأبدى مرونة في قوله:

- أنا معكم، أنا على استعداد لتنفيذ طلباتكم..

حمله بضعة شباب على أكتافهم، وطلبوا منه رفع شعارات مؤيدة للكرد. أطلق الضابط الشعارات المطلوبة. نجا التجنيد من الحريق رغم تحطيم بعض الكراسي. ثم ساروا معاً باتجاه مدخل المدينة حيث التمثال الأكبر للرئيس الخالد، هذا التمثال الذي كان يبعث الخوف في النفوس قبل الاقتراب منه، واليوم اجتمع عليه الناس بالعشرات، فر الحارس وتركه تحت رحمة الناس الذين فوْلَذَ الغضب أكبادهم. لم يسقط التمثال أمام ضربات الحجارة والأيدي والأحذية. في الأسفل أساسٌ مربع الشكل من البيتون المسلح، يعلوه تمثال الرئيس الخالد مادّاً يده في هيئة تحية نازية. وقف الناس؛ الصغار، الكبار، النساء، الرجال، الشيوخ والعجائز مندهشين

بانتظار سقوط التمثال، بانتظار بعض الأشخاص الواثقين من أنفسهم لتحطيم هذا الخوف الكامن في دواخلهم. لم تنفع محاولاتهم في إسقاط التمثال. هرع بعضهم باتجاه أحد أعمدة الكهرباء، والذي يزيد طوله عن ثلاثة أمتار، اقتلعوا العمود وضربوا به من الخلف مؤخرة التمثال الإسمنتي، حركوه قليلاً لكنه لم يسقط. امتطى رجل في مقتبل العمر دراجته القديمة متجهاً إلى البيت، وأحضر معولاً كبيراً حفر به تحت أقدام التمثال، وبدأ آخر بضربه بمطرقة، وآخر بالفأس، جرحوا الإسمنت؛ ما بين عشرين وثلاثين شخصاً حملوا العمود وهزّوه معاً، واحد اثنان ثلاثة، يا الله! يجب أن يسقط هذه المرة! باجتماع قوة العمود والمعول والمطرقة والفأس وقوة الزنود الكثيرة التي صبّت جام غضبها على هذا الإسمنت، الشبيه بإله ميت، تهاوى تمثال الرئيس الخالد الميت منذ أربع سنوات. علت زغاريد النساء، وسرى في الناس شعور ذو نكهة جديدة. رددوا بشكل عفوي ودون تخطيط، جزءاً من نشيد «أي رقيب». بشعور نادر، وسعادة فريدة أدار الناس ظهورهم للتمثال الساقط على وجهه، واتجهوا نحو السينما المحروقة في المدينة، والتي احترق

فيها أكثر من مائتين وثمانين طفلاً قبل أربع وأربعين سنة. هناك أيضاً رددوا نشيدهم الممنوع، ثم تفرقوا -كمن قام بأداء وظيفته- إلى بيوتهم. ما عاد الناس يعرفون ماذا ينتظرون، أو ماذا جرى في الأيام الضائعة القليلة. كان كل شيء قد اختلط وتداخلَ، وراحت رقعة النار تتسع وكذلك رقعة الانتفاضة و..الحرائق.

حين ينفض قلبي المهدم الجدران نفسه

في اليوم التالي بدأ السلب والنهب في الحسكة، وفجأة اختلطت الأمور. هاجم الملثمون دكاكين ومحلات المدينة، حطموا الأبواب ووضعوا أيديهم على المحتويات. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منهم ومن سلاحهم. كانت ليلى أول من خطرت ببالي، ودكان والدها في وسط المدينة إلى جانب دكان عمها. دار بين الناس نقاش ولغط بلا حدود، كل واحد يسأل عن هؤلاء السالبين، الناهبين، الغريبين، الذين التزمت الحكومة والشرطة الصمت إزاءهم...

جداول الأسئلة تسيل في كل شارع.

بعض يقول إن هؤلاء هم من القبائل والعشائر العربية سلَّحتهم الدولة وشجَّعتهم على الهجوم على أملاك الكرد في تلك المنطقة. وبعض آخر يقول يجب مقاومتهم وعدم السماح لهم بأخذ حريتهم في النهب، وآخرون يقولون إن هؤلاء هم مجموعة من اللصوص استغلت الفرصة وهاجمت الأموال الداشرة، وهذا ما وافق رغبات رجالات الدولة، لذا التزموا الصمت. كل من نزل إلى الشارع، سواء كان أعزلاً أم مسلحاً، اصطدم مع الناهبين وعلا أزيز الرصاص. لم تنقطع في ذلك اليوم أصوات الرصاص، التكسير، اللغط، الضجيج، التحطيم، وصرخات النجدة والاستغاثة. لا يعرف أحد عدد القتلى والجرحى. إنهم يهدفون إلى تدمير المدينة، وكل واحد يسعى إلى حماية نفسه. بعد مدة علمت أنهم نهبوا دكانيْ أبي ليلى وعمها، وأن والدها نجا من الموت. أسرعت إلى إخبار والدي ليزور شريكه السابق

الجريح. في اليوم التالي قام والدي مع مجموعة من أصحابه بزيارة حَسَنو الذي أسرع إلى الدفاع عن ملكه وملك أخيه، وأصيب

برصاصة في رجله اليمنى. تمنيت من كل قلبي أن يعود مع عائلته إلى مدينته القديمة، وتصبح ليلى قريبةً مني، لكن والدي لم يقل شيئاً من هذا القبيل، في تلك الليلة حَرَّم عليّ النومَ ذلك القلقُ وتلك الأحلام التي عرفتُ أنها لن تتحقق. تغلغلت نار الحقد والانتقام في كل مكان، وانتشرت رائحة الموت التي تحدث عنها كالو في الجهات الأربعة.

في سَريكانييه حاصر عربان مسلحون عائلة الباشا، كما يسميها أهل المنطقة. خلال فترة قصيرة تمرغت بعض الجثث في الأرض، وفي المشفى رفع الموت رأسه. تحول اليوم إلى يوم انتفاضة وتمزيق حجب صمت عشرات السنين. تصادم البوليس والناس والعشائر والعائلات. ارتسم مشهد وحيد أمام الأعين وهو أن تلك الحرب البيضاء والحقد المخبأ قد أطلا برأسيهما من تحت البساط، ورميا ثوباً أحمر بلون الدم على جسد المنطقة.

وكذلك في ديرِكْ أيضاً، ثم سلكت درباسية سلوكَ عامودا، وبدأ التحطيم. مباشرة، انتشر صدى اندلاع نار الغضب في زورافا بالشام، وكذلك كوباني وعفرين والحيّين العاليين في حلب؛ أشرفية وشيخ مقصود اللذين غالبية ساكنيهما من الكرد. كان الليل في تلك اللحظة قد انقضّ على قامشلو بمخالبه، ينبعث قلق ملفوف بأجنحة الأسئلة من كل مكان في المنطقة. كنت خائفاً من قدوم جيوش الجراد. تذكرت أن الجراد الكبير ينهش كل شيء وكل شخص قضماً. يضرب الجراد صدور الناس ويبدأ بالتهام قلوبهم وأكبادهم. أصابني الغثيان وكدت أتقيأ. بذلت كل جهدي لإبعاد مثل هذه التهيؤات عن عيوني، لكن مع فتح النافذة ذهبت كل محاولاتي أدراج الرياح. فالجنود بثيابهم الكاكية، الشبيهون بالجراد، ملؤوا

الشوارع. أطل الخوف برأسه مرةً أخرى. كل واحد يخاف أن يُطْرَق بابه ويصطحبوه معهم، وربما يكون ذهابه معهم، كما في معظم الأحيان، ذهاباً دون عودة. اعتقل الناس بشكل كبير. نزل كالو وسط تلك

الفوضى إلى الشارع، توجهت إليه بسؤال مخافة أن يلحقه الضرر من العسكر:

- ماذا تفعل هنا يا كالو؟

لم يصدر عنه أي صوت، وجّه نظرات حادةً إلى الجنود، التفت إليّ هازّاً رأسه:

- حين تسيل دماء البشر على الأرض يفقد الكلام قيمته، لقد شُلَّت الكلمات، شلّت! شلّتْ!..

فجأةً حمل كالو منفاخه وبدأ النفخ. لم تمتلئ كرته القديمة، أي قربته. اندهش بضعة جنود، أشباه الجراد، من رؤيته. منظرهم وحركاتهم يدل على أنهم يحسبونه مجنوناً. ازداد كالو انفعالاً، هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها على هذه الحال. كان يصرخ في القربة:

- خذي شكلكِ الدائري أيتها الملعونة! دوري، دوري، انتفخي، اكبري بين يديّ!

- كالو! كالو! ...

- بالله عليك يا موسى، دعني أُفَرِّجْ كَرْبي...

سار وهو يضرب بقربته الحيطان. الجنود يضحكون، وهم فخورون بسلاحهم. بعد لحظات وحين سمعت صوت إطلاق الرصاص، انتابني شعور وكأنهم يخبرونني أن كالو قُتِل. هرعت إلى الخارج، وجدت العساكر يلاحقون مجموعةً من الشباب اليافعين، وكالو يمشي بصمت وهو يمسك قربته بيد، وبالأخرى يحمل نايَه المكسور غير مبال برياح القدَر. ارتحت

قليلاً حين وجدته حياً. لكن فرحتي تلك لم تطل، فمن بين دخان وغبار ملاحقة الجنود هؤلاء الشباب، سمعت من خلفي صوت أقدام ذلك الملثم ذي العينين الصفراوين، شاهدت عينيه عن قرب هذه المرة، امتزجت صفرة عُينيه بالدم، فبدتا حمراوتين. قلتُ

في سرّي، العراك قائم ولا أحد يدري مصدر إطلاق الرصاص، ولا من يقوم به، ولو كنت أملك مسدساً الآن وقمت بإفراغ مشط كامل في رأس هذا الملثم ذي العينين الحمراوتين، ولكن ما الفائدة! فإني أعزل. خطر ببالي أن يكون هو قد حمل مسدساً وجاء ليقتلني وسط هذه الفوضى. بمقدوره فعل ذلك فيما لو رغب. ليته يفعل ذلك في غفلة مني ويخلصني من هذا الخوف. يتبعني الرجل خطوة بخطوة، كعادته في كل مرة، يسرع الخطى في صمت. حين أخرج يده من جيب جاكيته أبديت استعدادي للقتل، ظننت أن رصاصة حادة انفجرت في جبيني لكن شيئاً لم يحدث، بقيت في انتظار رصاصة ثانية، لكنه كان يحمل سيجارةً -لا سلاحاً- في يده. نسيت مخاوفي وانشغلت بفكرة أنه حين يرفع سيجارته إلى فمه، سيضطر إلى رفع اللثام عن وجهه وبذلك يمكنني التعرف إليه. كل منا حذراً من الآخر. فكما أنه يعرف أين أذهب ويتبعني خطوة بخطوة، فإني أراقبه من طرف عيني، كان الرجل يدخن السيجارة دون أن يرفع اللثام. هل لثامه مثقوب يا ترى أم إنني مشوش البال اليوم ولست بقادر على التمييز؟ دخن هذا الرجل العجيب سيجارته كاملةً دون أن أستطيع رؤية ملامحه. سيطر عليّ الخوف، وتبخرت أحلامي. رغبت في أن أصرح له بأني على استعداد لتنفيذ ما يطلبه مني؛ أن يقتلني، يخنقني، يعتقلني، يقلع عينيّ، فليفعل ما يشاء، شرط أن يدعني وشأني. زيادةً عن الخوف فقد خارت قواي نتيجة التعب وفقدان الأمل. قررت أن ألتفت إليه فجأةً وأصرخ فيه وأخبره بكل هذه الأشياء دفعةً واحدة. في اللحظة التي التفتّ إليه كان قد اختفى. جلست عند الجدار القريب من دارنا، أراقب العساكر وهم يتنقلون من

حائط إلى آخر مخلفين وراءهم جلبةً محزنة. وبكيت كثيراً ذلك اليوم.

بكيت ما يكفي لألف وتسعمائة وثلاث وعشرين سنة.

رغبت في أن أصرخ ويسمعني الناس في لوزان السويسرية.

حتى تلك اللحظة كنت مطأطأ الرأس، وما أن رفعت رأسي حتى ضرب وجهي بضع جرادات، ومع رفع يدي ابتعدت عني، نظرت حولي، لم أجد سوى

عساكر بلون الجراد. مع دخولهم إلى أي بيت كانوا يجرجرون واحداً أو اثنين. جُرَّ الناس من بيوتهم بالعشرات. بدأت حفلات التعذيب والألم في أقبية السجون. غابت تماماً الابتسامات الذابلة على شفاه أبناء المنطقة، لتحل محلها جدية مصحوبة بالحزن ممزوجة بالخوف وبالأسئلة التي لا تملك أجوبةً. مع دخولي إلى البيت فتح علي سايكس الباب:

- أهذا أنت ثانية؟

- نعم أنا. كنت أعلم أنك تبحث عني، لذا قدمت.

- كنت أعلم أنك لا تسكن فقط صفحات الكتب لأحدث الطلاب عنك.

- أديت واجبي التاريخي تجاه وطني وها أنا راحل.

- لا، توقف، مازال بيننا حساب كبير.. ها هي التجزئة والتقسيم، وها هي دماء أناسنا أمام عينيك.. إلى أين سترحل؟

- إلى لندن، أشعر بالملل هنا.

- أقول لك: لا تذهب، لا تذهب قبل أن نصفّي حساباتنا.

- كان هذا اتفاقي مع صديقي بيكو.

- أما زلتم مصرين على آرائكم؟

- إني موجود فقط في خيالك، ومن أجل الخبز والملح الذي تناولناه معاً جئت أودعك.

- قبل إيجاد حل فإن رحيلك يثقل ذنوبك.

- إنك تحلم يا موسى، ها أنا راحل.

تحول سايكس إلى حفنة هواء، دارَ في المكان وانطلق كصاروخ من النافذة. مع انطلاقه، شعرت بنفسي في الفراش وأمي تمسح عني العرق وتبكي. وحين فتحت عيني سألتني:

- مع من كنت تتعارك يا بني؟

وكي أريحها قلت:

- كان حلماً يا أمي، كان حلماً..

مع أنه لم يكن حلماً، وأن سايكس هو الذي كان يحادثني، لكنْ، ما الذي يمكن أن تستوعبه أمي المسكينة من قصص هذا التاريخ الذي لخبط دماغي:

- يا بنيّ! امتلأت المشافي بالجرحى، وإلا لطلبت أخذك إلى طبيب.

- لا يا أمي، لا. لا تضخمي الأمر! كان حلماً وانتهى.

- إنك ومنذ فترة لستَ على ما يرام يا بني! أنا أم، وقلب الأم لا يكذب.

ربما يكون الحق معها. قد أكون مريضاً ولا أعلم. حقيقة؛ ما الذي يفعله سايكس وبيكو هنا بعد كل هذه السنين؟! طلبت من أمي أن تتركني لأنام، غادرت أمي وبقيت يقظاً. خلال فترة قصيرة انتشر خبر قدوم مسؤولين كبار من الشام. اجتمع المسؤولون المختارون، والذين تشكلت منهم لجنة أمنية، مع مسؤولي

أكثر من اثني عشر حزباً كردياً محظوراً، إضافة إلى رؤساء العشائر ومسؤولين آخرين في قامشلو. في الاجتماع، هدّد المسؤولون الكبار وجوهَ

الحضور العابسة. حضر رؤساء العشائر ورؤساء الأحزاب والوجهاء على أمل أن يطالبوا بإطلاق سراح المعتقلين، وراح خيال رؤساء الأحزاب أبعد من ذلك وطالبوا بحل القضية الكردية. لم يهتم المسؤولون الكبار إلا بأمر واحد، وهو أن يهدئوا هذه الجشود الغاضبة بوساطة هؤلاء الأشخاص، كي يستطيعوا الالتفاف عليهم ويطفئوا هذا الحريق. ولذلك لم يقبل المسؤولون الكبار أي طلب، وبكلمة واحدة وضعوا كل شيء على الطاولة:

- إذا لم يهدأ هؤلاء الناس، فإن دبابتين أو ثلاثاً، وكتيبة أو اثنتين من القوات الخاصة كافية لتدمير المدينة بأكملها. لذا من الأفضل سد الطريق أمام سيل الدم منذ الآن. المشاكل الأخرى ستبحث فيما بعد.

في طريق العودة قال رئيس حزب لآخر:

- قلتُ لكم علينا ألا نحضر اجتماعاً كهذا، فرفضتم. نحن سياسيون وهم لجنة من المخابرات، كيف ندخل مثل هذا الفيل في ثقب هذه الإبرة..

- كان ذلك رأي مجموع أحزابنا، وليس رأيي وحدي.

- لم يعدونا بشيء، كل ما يطلبونه هو أن يستخدمونا كأداة لتهدئة الناس وإخماد الانتفاضة.

- وما الحل؟

- الحل هو أن نتفاوض مع رجال السياسة وليس مع رجال المخابرات.

- لا يوجد حل. إما أن يُقتَل منا الآلاف، وتذهب دماؤهم هدراً، ولا أحد يناصرنا، وإما علينا أن نضع حداً للمشكلة بإيقافها. هكذا فهمت.

- خياران أحلاهما مر، لست راضياً عنهما.

- الاستمرارية خطر، وكذلك التنازل من دون شروط خطر أيضاً.

في هذه الأثناء انتشر خبر في عامودا كالنار في الهشيم، وهو أن الديريين والعسكر يستعدون معاً للانتقام لأحد الجنديين الجريحين الذي مات. وكانت تنتظر الهجوم بين اللحظة والأخرى، إلى أن انتشر موظفو الدولة في المدينة ونشروا الخبر بشكل آخر، وطلبوا إخلاء الشوارع؛ صحيح أن بعض الديريين المسلحين قد قدموا إلى المدينة إلا أنهم جاؤوا لنقل جثة رئيس المخفر المقتول وعائلته. ثم تناهت إلى أذني أخبار اندلاع النار في عفرين وزورافا في الشام. فكرت في وضع صديقي سمكو وقادو، مشهد يأخذني وآخر يعيدني، علت أخبار ما جرى في عفرين وكوباني وزورافا علوَّ نارٍ رُشَّ عليه البنزين. حوصرت زورافا بالسلاح والعسكر، ولم يتركوا غير الأطفال والنساء في البيوت، زاد عدد المعتقلين عن ألفين. قطعوا الماء عن الحي، وبدؤوا بإطلاق عيارات ناريةً متفرقة. أدركت أن قادو بين المعتقلين، لأن أخباره انقطعت، ولم يكلمني تلفونياً. خشيت أن يكون بين الجرحى. نشرت عائلته خبر اعتقاله. ابتسمت وقلت في سري:

- ربما، يرسم من اليوم فصاعداً، بشراً دون أذناب، بدل تلك القطط والحمير.

ما لم أكن أعلمه هو أني، بعد اليوم، لن أستطيع رؤية صديق أيامي التي علاها الغبار، لأنه ومع خروجه من السجن سلك طريق الغربة ويقال إنه هاجر إلى أوروبا. وقد قيل لي مؤخراً إنه في ألمانيا. انزعجت من قادو، لأنه لم يحطني علماً بنيته في السفر، حتى أنه لم يخبرني بعد رحيله أيضاً. آذتني خفة علاقتي معه، وتركت في قلبي حزناً ثقيلاً. لم يكن يعلم أنه وسمكو نافذتان واسعتان بالنسبة لي لرؤية اللون الآخر للحياة، اللون المانح نقشه لأحلام وخيالات أيامنا القادمة. ها هي نافذة قد أغلقت على قلبي المشغول وحده بدروس التاريخ. وسط تلك الفوضى ما عدت أعلم شيئاً عن سمكو وحبيبته العفرينية شيرين. ما عدت أعرف كيف أنقذ رأسي من

بين مخالب هذا التاريخ المكتوب وغير المكتوب، كما لم أعد أعرف إلى أي باب ألتجئ وعلى رأس مَن أنثر تراب هذا القلب الذي تداعت جدرانه، وعلى هوى أي ريح أذرو هذه الآلام والهموم الصغيرة. في تلك اللحظة تمنيت لو خرج لي ذو العينين الصفراوتين والملامح الميتة، لأمسكه من خناقه بكلتا يديّ وأميط اللثام عنه، وأجلسه أمامي وأتحدث إليه طويلاً.. طويلاً. سأبدأ من فترة ما قبل ألفين وستمائة سنة وإلى سايكس الذي يجب عليّ رؤيته ثانية. يجب أن يسمعني ذلك الرجل ولو لمرة واحدة. جدي يحدث نفسه ليلَ نهار وينتظر السلم النوراني. أمي، مخافة مرض الخانوق، تبتهل إلى ربها خمس مرات في اليوم، كي يحفظها ويحفظ الناس جميعاً من هذا المرض، ويجد حلاً لحناجرهم المسطومة. والدي نسي أنه أب. لم يبق سوى توتنو الذي لم أره منذ فترة طويلة، وصلت بصعوبة إلى مكانه في المشفى، من بعيد كان يُسْمَع صوت الضجيج الذي أحدثه مع الأطباء، كان صراعهم قائماً حول التدخين، لم يستطع كل الأطباء أن يمنعوه من التدخين، على سرير مرضه، وفي غرفته في المشفى، كان قد علق شعاراته:

أنا ضد العالم، وضدكم! تعيش فلسفة التراب!

هناك قيل لي إنه كان يريد أن يكتب هذه الشعارات على جدران الغرفة، لكن الأطباء لم يسمحوا له، فكتبها على قطعة كرتون وعلقها عند رأسه. كان قد رفع سيفه وهو يقطع أرض الغرفة ذهاباً إياباً بين الجرحى:

- قلت لكم سابقاً، إن القوة تُحِقّ الحقوق فلم تصدقوني.

وقف مقابل أحدهم وهو يصرخ:

- لم تسلكوا طريقي إلا بعد أن شاهدتم دمكم يا صاحبي!

كان توتنو ينطق ناراً في ذلك اليوم.

عدت إلى البيت كليلاً متعباً. الجراد يملأ الشوارع. اتخذ كل شيء لون جلد الجراد. تذكرت ليلى. في الداخل وضعت كل كتب التاريخ في كيس وربطته من فوهته، شعرت براحة تامة، وكأن الأكاذيب قد غادرت العالم. كان شعوري أنني وضعت كل أكاذيب حياتي، وكل أنواع الخداع والمكر، والقصص الخاوية منذ آلاف السنين في هذا الكيس وأحكمت إغلاقه. وتملكتني رغبة أن أرميها بعيداً عن داري، أو أن أخرقها بمذراة حادة الرؤوس حتى مفارقة الروح السابعةِ الجسدَ، وأرميها على مزبلة بعيدة، لكنها كانت كتباً بلا روح، لذا لم يكن لها إلا حل واحد وهو الحرق. في شارع خالٍ إلا من بضعة جنود، وضعت عود الثقاب المشتعل تحت كتب تاريخي ورحت أتفرج على ذلك الحريق بارتياح وسعادة. التاريخ يحترق بانتشاء. الاتفاقيات والمعاهدات الدولية تحترق. الأكاذيب والمحاولات عديمة الجدوى تحترق.. أسماء الملوك والرؤساء والسلاطين والجنرالات تحترق.. الخداع، التقسيم، الانتصارات الباهتة، الهزائم الدموية تحترق... الألغام التي خلفها الجيش، الجنود، المقاومون ولباس الأموات تحترق.. في تلك الأثناء كان الحريق يتسلق شيئاً فشيئاً جدران قلبي المهدم، ليحترق هو أيضاً.

حـــين يصبـــح الخـــوف أبـــاً، تصبـــح الأم تبغـــاً، يصبـــح الزمـــن نـــاراً، ويتحـــول الحـــب إلى رمـــاد.

ما أن فتح موسى الباب حتى ملأت أنفَه رائحةُ الطعام المحترق، اتجه بسرعة صوب المكان، أطفأ النار. كان يشعر بجوع شديد، لكنه لم يجد سوى الطعام المحترق. فكر قليلاً، لكنه اندهش؛ من الذي وضع الطعام على النار؟ ومن هذا الذي دخل البيت دون إذنه؟ فعائلته مشغولة بموت جده. لم يُرسَل له السلم النوراني ولم يصعد السماء السابعة كما كان يرغب، وكذلك لم يشهد استقلال كردستان. كانت العائلة، بعد بضعة أيام من موت جده، مدعوةً إلى وضيمة عند أحد الجيران كل يوم. واليوم قد استضافهم أحد هؤلاء الجيران لتناول الغداء. وسط تلك الأحداث الصاخبة التي كانت تعيشها المدينة؛ حيث يعود كل بضعة أيام شخص جديد من السجن أو من الجيش إلى عائلته على نعش، لم ينتشر خبر موت جده إلا في محيط ضيق. يعتبر موت جده حادثة صغيرة مقارنةً بالموت تحت التعذيب في المعتقلات، أو قتل شاب في مقتبل العمر في الجيش. ومع ذلك فقد أصيب موسى بدهشة، لأنه كان واثقاً من وجود معاهدات سرية بين جده والموت، كاعتقاد جده أنه سيصعد يوماً باتجاه الأعلى، ولا يمكن أبداً أن يدخل قبراً مظلماً تحت الأرض. هبت ريح تدل على هزيمة حب عميق من جهة ليلاه. أصيب بصداع شديد ولم يعد يميز بين ما إذا كان هذا حلماً سينتهي أم حقيقة. رمى بنفسه على الفراش دون أن يخلع ثيابه، ونام رغم شعوره بالجوع. إنه يتحدث وكأنه يستمع إلى صوت نفسه:

(..أعرف أن هذا صوتها، طيفها، رائحة حركة أصابعها، لكني لم أعرف كيف استدلت على مكان وجودي! كيف اتجهت إلى سرير نومي لتجدني متمدداً على بطني! كيف تستطيع عيناها الأرقّ خضرة من أوراق الربيع التي علاها الندى أن تفتح في جسدي هذه الجروح دون أن توقظني؟ وكيف تستطيع نشر مثل هذه القوة؟ كيف بإمكان مثل تلك الأصابع التي تتسلق جدران قلبي برقة ولطف أن تحمل سكيناً! لا أصدق أبداً. لكني، صدقت أم لم أصدق، ها إني منبطح على فراشي، وسكين طويلة وحادة تتحرك ما بين لحم ظهري وعظامه. وليس بإمكاني أن أتقلب على هذه الجهة أو تلك، كما لا يصدر عني أي صوت. لا ريب في أن ما ألصَقَ ثيابَ نومي بظهري هو الدمُ ولا شيء سواه. يبدو أن ما تبقى من عمري من ساعات أو أيام معدودات سينقضي في طرح أسئلة لا أجوبة لها. من هذا الذي سيجيب على شخص صامت مثلي! وإذا ما صرختُ فمن سيسمع صراخي؟ أهذا منام يا ترى؟ ليتني أجد فجأةً هذا الواقع الذي أعيشه كله مناماً، لكن لا يوجد أي مؤشر على أنه منام. إنه رائحة شعرها المنسدل فوق عينيها، إنها مشغولة، كالعادة، بنفسها وبعملها. أعرفها من الألم الذي تبعثه حركة هذه السكين في جسدي. هي الوحيدة القادرة على بعث مثل هذا الألم في خلاياي. العاشق دوما يريد أن يخدع نفسه، أن يخفي آلامه أو يخففها. أحياناً يتحول الألم إلى دموع تتدفق من العيون، وأحياناً إلى صمت حزين يحول صاحبه إلى قنفذ جمّده البرد. يا إلهي! ما هذه الغرفة التي يسكنها برد هذه الليلة؟ أهذه هي التي أمضيت كل هذا الوقت في انتظار قدومها دون أن تأتي، أهي التي امتلأت عيناي دماً في سبيل رؤيتها؟! كيف استدلت اليوم على بيتي وفتحت الباب؟ كل هذا لا يهم، لكنها من أين حصلت على المفتاح؟ لم تكن هذه المرأة من النوع الذي يدخل أي بيت دون إذن. من يخبرني عما يحدث على فراشي الآن؟ ما هذه السكين المغروزة في ظهري؟

كيف تنظر إليّ هذه المرأة بدم بارد وكأن شيئاً لم يحدث؟ إنها هي، صوت ضحكتها، ظلال خطواتها، أغنياتها غير المكتملة، إنها هي نفسها وكأنها تراني. لكنْ، كيف تستطيع تحريك السكين بحرفية في الجرح دون أن تقتلني، أو دون أن تخرج السكين وتبدأ بمداواتي! لا أحد يستطيع أن يصدق مثل هذا الأمر. إنه ليس مشهداً من أحد أفلام الرعب، وليس مسرحاً ولا تمثيلاً. أنا وهي، رجل وامرأة في غرفة خاوية؛ أنا منبطح، وهي جالسة عند رأسي تدير السكين في الجرح كامرأة تدير حجر الرحى. عرفت الآن ما هو الألم، ولكني لم أعرف ما هذا الواقع الذي أعيشه...).

حين شعر بوجوده، فتح عينيه، لم يجد لا امرأةً ولا سكيناً مغروزةً في ظهره. فقط كان هناك ألم شديد تغلغل إلى عظام ظهره دون أن يفارق عينيه خيال ليلى. تزوجت ليلى من ابن عمها. إنها كآلاف النساء رضيت بقدرها في إنجاب الأولاد، والاهتمام بمنزلها. قضت بقرارها هذا على كل أحلامها وأحلام موسى. تغلبت عليه أحلام اليقظة في ذلك اليوم. عادت إليه آلام تلك البثرة في مؤخرته. ما جرى من أحداث أنساه الخوف من طلوع ذنَب في مؤخرته. البقاء وحيداً يزيد من حدة مخالب الخوف.

هذه المرة الأولى التي خطرت فيها فكرة مغادرة الوطن في رأس موسى. قال لنفسه:

- قبْلها، هناك أمور عديدة يجب أن أقوم بها. الوقت ليس مناسباً للهروب يا قادو!

في بلد كهذا البلد الذي يغمض الأطفال أعينهم على الكذب ويستيقظون على الكذب، فإن تدريس التاريخ يعتبر بحد ذاته نوعاً من التعذيب الشديد. في تلك الأثناء سُمع صوت غريب ناحية الباب، خاف موسى، خطر على باله المخابرات. كثرت الاعتقالات في تلك الأيام. حالة الطوارئ قائمة منذ أكثر من أربعين سنة. بإمكانهم مداهمتك في أي وقت وفي

أي مكان، وأخْذك ورميك في الحجرات المظلمة. سمع صوت من ثقب المفتاح، ارتبك موسى:

- الباب ليس مقفلاً، لم يحاولون فتح الباب للدخول؟.

انتشرت في جسده رعشة خوف.

رأى من الضرورة أن يقترب من الباب. استطاع الوصول إلى الباب دون أن يصدر صوتاً. فجأة، فَتَحَ البابَ بسرعة وبقوة و... حدق الرجل الملثم في عينيه. تفاجأ موسى. وقبل أن يصرخ فرّ الملثم هارباً. لحقه موسى حافياً يحدوه الأمل أكثر من السابق على أنه سيمسك به هذه المرة. بعد مطاردة دامت ثلاث دقائق أدرك أنه لن يمسك به. ليس هذا فقط إنما ترك الملثم خلفه زوبعة واختفى. خشي أن يكون قد أصيب بمرض دون أن يعلم، وأن ما جرى عبارة عن تهيؤات تخطر بخياله. ضحك:

- أية تهيؤات وأية حال؟ ليتها كانت تهيؤات.

في تلك اللحظات كان محتاجاً لسمكو. سمكو الساكن بصمت وسط غبار القتلى والجرحى في عفرين وحلب. الجميع مشغولون بالأحداث التي جرت. تغير الجميع. سقطت الأقنعة عن وجوه الناس. وكأنهم اتفقوا على التجرّدن. لم يعد أحد يتعقب آثار الجراد، فقد انتشرت رائحته في كل مكان. المسؤولون في السلطة الذين وقفوا في وجه الجراد، صار التجردن أيديولوجيتهم. وصارت السلطة بأكملها في أيدي بضعة جرادات كبيرة، وانتشر الخوف معها بين أسراب الجراد الصغير. في ذلك اليوم، ارتعب موسى حين قرع أحد المسلحين بثيابه الكاكية، باب داره. بداية شاهد أمام عينيه جرادة كبيرة، وبعد أن جفل عرف أنه رجل من المخابرات:

- المعلم يريدك. غداً السابعة صباحاً.

- لماذا؟ تفضل.

- هناك ستعرف. لا نستطيع الجلوس. إننا مشغولون.

حين أدار ذو الثياب الكاكية ظهره لموسى تناهى إلى سمعه صوت طيران جرادة. مع هذه الخاطرة أراد أن يطمئن نفسه ففكر على هذا الشكل:

- ربما تكون مسألة الرجل الملثم، ذي العينين الصفراوتين والملامح الجامدة، أيضاً مسألة تهيؤات وخيالات.

فكر مباشرةً في ذهابه في السابعة صباحاً. في اليوم التالي وقبل السابعة كان واقفاً على باب المخابرات العسكرية. كان قد احتاط لكل شيء. كثيرون من وقفوا قبل السابعة على هذا الباب وعادوا إلى عائلاتهم بعد خمس عشرة أو عشرين سنة. وبعضهم لم يعد أبداً. أخبر الشخصَ الواقف بالباب عن اسمه، هز الرجل رأسه وأدخله إلى غرفة بجوار غرفة «المعلم». بقي في تلك الغرفة ثلاث ساعات ونصف الساعة. دخل عليه في أثنائها أكثر من خمسة أشخاص، وسألوه عن اسمه وسبب مجيئه إلى هذا المكان. أخذوه إلى معلمهم الكبير. طلب إليه الشخص الذي اصطحبه إلى غرفة المعلم أن يجلس، وغادر. أدار المعلم عينيه أكثر من خمس دقائق في الأوراق التي بين يديه على الطاولة وقال:

- خرج أمرك من يدنا. إضبارتك وصلت إلى المعلم الكبير. عليك أن تذهب إلى العاصمة.

قال موسى في سره:

على أساس أنك أنت المعلم الكبير؟

تابع المعلم بملامح جامدة لا يبدو عليه الانزعاج كما لا يبدو الفرح:

- عليك الانطلاق في صباح الغد الباكر إلى الشام والذهاب إلى هذا العنوان.

نهض موسى سريعاً، تناول الورقة من يده وتعجب من راحته، لأن هذا المكان معروف أن لا أحد يدخل إليه سالماً ويخرج منه سالماً. نظر موسى

إلى العنوان، وعرف ما هو «الفرع ٢٣٥». بهذه الكلمات أنهى المعلم حديثه:

- إن كان ذلك صعباً بالنسبة لك، ابق هنا، بإمكاننا أخذك غداً.

كان موسى يريد أن يخرج سريعاً من هناك:

- لا، لا. شكراً. أستطيع أن أذهب بمفردي.

- يجب أن تكون هناك بعد غد صباحاً، كحد أقصى. ولا يجوز أن يعرف أحد، وإلا فإنك تتحمل المسؤولية.

- حسناً. هل أستطيع أن أعود إلى البيت الآن؟

- نعم، اذهب.

سر موسى بالخروج من هذا المكان سالماً من جهة، ومن جهة أخرى بعث هذا الرقم /٢٣٥/ خوفاً شديداً في قلبه. كما استغرب كيف أنهم لم يعتقلوه وينقلوه إلى هذا العنوان العجيب. طمأن نفسه:

- إني مندهش من هذا الاحترام. ورقة وعنوان وسأذهب بمفردي! والله وكأنني في بلد آخر ولست في بلد حالة الطوارئ!.

ابتسم:

- ربما كان هذا الاحترام لكوني مدرساً للتاريخ! لكن ما هذا الفرع ٢٣٥ كرمى لله؟!

أصابه قلق في البيت، رغب في أن يسأل عن هذا الفرع. وحين رغب في السؤال بالتلفون تذكر وعيد المعلم. ومع ذلك لم يملك نفسه، لكنه تلقى الإجابة كصفعة:

- كيف لا تعرف بأن هذا الفرع هو فرع «فلسطين» فرع المخابرات العسكرية. وهل بقي شخص على طول البلاد دون أن يسمع بهذا الفرع؟

ارتخت ركبتاه مع سماعه اسم فرع فلسطين. أخبر أمه فقط، وجهز نفسه للذهاب. بكت أمه:

- لا أحد لنا سواك يا موسى. دع السياسة يا بني. هؤلاء عديمو الأصل لا يعرفون الله. إنهم يضَيِّعون الناس يا بني.

كان يقول في سره إنه ربما لا يعود إليها أبداً، أو يعود بعد خمس عشرة سنة، لكن أراد طمأنتها:

- ومع ذلك فالآن أفضل. سابقاً لم تكن هناك محاكمة؛ أربع عشرة سنة، عشرين. كانت المسألة تتعلق بالحظ وبضمير رافع التقرير.

في الشام، حين أوقف سيارة، وطلب من السائق إيصاله إلى الفرع ٢٣٥، فكر السائق كمن يقول لا أعرف، ألحق موسى عبارته بـ «فرع فلسطين». هز السائق رأسه:

- هاااا، قلها من البداية.

وابتسم:

- هل تعمل هناك، أو -لا سمح الله- ضيف؟

- نعم أنا ضيف.

عند الباب وحين أنزل موسى تناول أجرته وقال:

- لا أذاق الله أحداً مثل هذه الضيافة.

داس على البنزين بقوة وراح.

مع ترجله نظر إلى الساعة كانت الثامنة صباحاً. توجه إلى الاستعلامات. لما نطق اسمه، تكلم الرجل مباشرةً عن طريق اللاسلكي مع أحدهم ثم طلب إليه أن يذهب إلى قسم الأحزاب. في الجهة اليمنى كان مكتوباً بخط عريض (إدارة التوجيه السياسي)، تجاوز الإدارة ووصل إلى بناء من طابقين. كان عند الباب رجل بثياب سوداء قد وضع يديه في جيبه، طلب إليه أن

يتبعه. صعد إلى الطابق الأعلى، ذكّره الكوريدور الطويل والغرف المتجانبة بالمشفى. أدخله الرجل إلى إحدى تلك الغرف، فيها ثلاثة رجال آخرون، كانوا يشربون «المتّة». سأل أحدهم:

- مين ها الطير؟

- مناضل.

- ليش لا؟

سخريتهم هذه بعثت في فم موسى طعماً كطعم الصابون. كان على الطاولات أمامهم مجلدات وكلاسورات سميكة. مكتوب على غلاف كل مجلد اسم حزب (لجنة متابعة أعمال المكتب السياسي لحزب....). أسماء جميع الأحزاب التي يعرفها موسى والتي لا يعرفها، كلها موجودة هنا. إلى جانب الباب يوجد سريران للنوم فوق بعضهما. طلب أحدهم إلى موسى أن يجلس على السرير السفلي. جلس موسى في صمت. خرج الرجل ذو الملابس السوداء، وبقي الثلاثة يتحادثون دون أن يعيروه انتباهاً.

بين الحين والحين كان يدخل شخص جديد، ويسأل عن اسمه وسبب وجوده هنا. وموسى يجيب جواباً واحداً وهو: أنتم طلبتموني. خمّن موسى أنهم تركوه بانتظار أحدهم وأن المسؤول عن إضبارته ليس هنا بين هؤلاء الثلاثة، لذلك كانت عيناه تبحثان خارج الغرفة. فجأةً دخل شخص الغرفة راكضاً وقال لهم: جاء المعلم. خبأ الجميع كاسات المتّة تحت الطاولات، ووقفوا في وضعية الاستعداد دون أن يصدروا صوتاً. فوجئ موسى ولم يعد يدري ماذا عليه أن يفعل، ووجد نفسه واقفاً مثلهم. خاطبه أحدهم غاضباً:

- اجلس أنت، أيها الحمار!

جلس موسى وقد تعرّق جسمه. في تلك الأثناء وقف المعلم العابس والمنفعل بالباب:

- لم لا تقف يا حمار؟

صرخ المعلم ذو الشارب الأسود في وجه موسى. وقف موسى كمسمار، وهو يصدر صوتاً كالفحيح. التفت إليه المعلم ثانية:

- شو، ما عجبك أُلاك؟

- لا يا سيدي، هو من قال لي ابق جالساً.

- ليس هنا سوى معلم واحد. هل فهمت؟

هز موسى رأسه، وبصعوبة بلع ريقه. وحين أدار المعلم ظهره وراح، تعجب موسى من طريقة مشيته؛ فقد كان يجر رجليه جرّاً، وكأنه لا يستطيع ثني ركبتيه. جلس الجميع، وبقي موسى واقفاً، لم يعد يعرف إن كان عليه أن يجلس أم يبقى واقفاً، إلى أن قال له أحدهم:

- اجلس يا حمار أفندي!

عاد الرجل ذو الملابس السوداء وطلب إليه أن يتبعه. قاده إلى آخر غرفة في ذلك الطابق. قال له:

- لا تتحرك من هنا حتى نطلبك.

أغلق الباب وراح. لم يكن في الغرفة سوى سرير بطابقين والصور المعلقة. جلس على السرير السفلي وبدأ يعد الصور. ثلاث وثلاثون صورةً للرئيس الخالد، سبع وعشرون صورةً لابنه الراحل، وثلاثون لابنه الحي. وسط نار الشكوك والخوف كان يعلو صوت طقطقة القش فوق رأسه:

- كيف استطاعوا جمع هذا العدد الكبير من الصور في غرفة صغيرة كهذه؟!

هذه هي المرة الأولى في حياته التي يشعر فيها بأن الزمن لا يمشي. لم يقف الدماغ وحده عن الحركة، بل حركة الزمن أيضاً. دقق في ساعته ليرى إن كانت تعمل أم لا. الساعة تسير ببطء.. ببطء، وكأن عقاربها تجر خلفها سبعة جبال. فُتِح الباب. جفل موسى من جهة، ومن جهة أخرى

شعر بالفرح لأنهم سيبدؤون التحقيق معه. أُغلِق الباب. لم يحدث شيء، أطلّ أحدهم برأسه، حدق في موسى وعاد. أعاد عدّ الصور. فتح الباب، أغلق الباب. لم يستوعب موسى هذه الحركات. شعر بحاجة شديدة إلى التبول، تكاد مثانته تنفجر. ظل ينتظر قدوم أحدهم ليستأذنه للذهاب إلى المرحاض، لكن أحداً لم يطل عليه. نظر ناحية النافذة فرأى قنينةً فارغة. انتابته ضحكة حين فكر في أن يبول في هذه القنينة، لكن سبعاً مثلها لم تعد تكفي هذا الماء العجيب الذي يضغط عليه. بصعوبة سيطر على نفسه. توقف الزمن والساعة تنعس. اتجه صوب النافذة وهو يقول:

- رحم الله من نسي هذه القنينة هنا.

خطا عدة خطوات باتجاه القنينة، واتخذ قراره النهائي بأن يملأ لهم هذه القنينة، ويخفف من هذا الضغط العجيب، هذه الحرقة الشديدة، عن مثانته، ويطرد هذا الألم من كليته وبطنه. فجأةً رأى أن لا قنينة هناك، ولا أي شيء يمكن أن يفرغ فيه قطرة ماء. تذكر أنه يتخيل أشياء. تشتد الحرقة ويتضاعف الألم. مضت ثلاث ساعات ونصف. صار لديه أمل بأن يطلبوه للتحقيق، لكن لم يطلبه أحد قط. لم يعد يفكر في الاعتقال والتعذيب، تملكته رغبة وحيدة، وهي، يجب أن يبول. مضت نصف ساعة أخرى، استحضر موسى الموت أمام عينيه، إما التبول أو الموت. فتح الباب وركض سريعاً في الكوريدور. في تلك اللحظة واجهه ذو الملابس السوداء، خاف كل منهما من الآخر. صرخ ذو الملابس السوداء:

- ألم أقل لك....

- أكاد أبول في ثيابي، لم يعد بإمكاني التحمل، أين المرحاض؟

حين وجد ذو الملابس السوداء الأمر جدياً قاده إلى الطابق الأسفل وبقي في انتظاره. لم يتسن لموسى إغلاق الباب، تركه مفتوحاً وأفرغ كل آلام وأوجاع الدنيا مع تلك المياه الزائدة، وهو يقول لنفسه: والآن أهلاً بالإعدام

إن أتى. في تلك اللحظة عرف أن أسعد اللحظات في حياة المرء أحياناً هي هذه اللحظات التي يذهب فيها بحرية إلى المرحاض. شكر ذا الملابس السوداء على هذه الخدمة الكبيرة، وعاد إلى غرفته المليئة بالصور.

مرةً أخرى، بقيت عيناه معلقتين في الساعة. جاءه شخص وطلب إليه أن يتبعه. أراد أن يشكره من شدة الفرح، لأنه أنقذه من هذا الوضع، لكن جدية المسألة والخوف من قدره المجهول الذي ينتظره، حَبَسَ رغبته في حلقه. أدخله الرجل إلى أحد عابسي الوجوه، وقبل أن يغادر قال:

- هل هناك أوامر أخرى سيدي؟

- لا، انصرف.

بدأ الوجه العبوس بتوجيه الأسئلة من خلف طاولة مرتفعة، ومعها يهدد بإنزاله إلى الأسفل. حينها تذكر موسى أن هناك سجناً مشهوراً تحته. أصابته رعشة حين خطر له أن تحت قدميه الآن مئات المعتقلين يعيشون في أوضاع قاسية. عدّد التهم الموجهة إلى موسى:

محاولة تقسيم الوطن والعمالة.

معاداة أفكار الرئيس.

معاداة الأهداف المقدسة للثورة؛ الوحدة والحرية والاشتراكية.

العلاقة مع تنظيمات محظورة داخل الوطن وخارجه.

الكتابة بأسماء مستعارة، ونشر منشورات ضد المصالح القومية العليا.

المشاركة في التخريب، الحرق، وسلب الأموال العامة وأموال الدولة. وكذلك تأجيج الشعور العنصري.

القيام بأعمال خطرة على أمن الدولة.

كانت أجوبة موسى واضحةً ومختصرة، رد التهم عنه بدم بارد. وحين

فقد الرجل صبره قال لموسى:

- إذا كنتَ تريد أن تراك أمك ثانية، قل لنا الحقيقة، ولا تنكر. والله سأجعل رؤيتك حسرةً لأمك.

وكان جواب موسى دوماً هو:

- قلت لكم كل ما عندي.

ضغط الرجل بإصبعه على زر بجانبه. دخل رجل ضخم باندفاع وصرخ:

- أمرك سيدي!

أشار بيده ليأخذني معه –يقول موسى- تبعته بسرعة. قادني إلى غرفة صغيرة وقف فيها خمسة آخرون في صف وصرتُ سادسهم. دخل الرجل الضخم غاضباً ومعه كرباج سميك وبدأ بالرجل الأول في الصف ضرباً بالكرباج، فعلت صرخاته. كان الثاني فتى يافعاً لم يبلغ السادسة عشرة من العمر. سأله:

- بأية يد سرقت أشياء المعلم؟

كان الفتى يبكي ويرتعش، مد يده اليمنى. في تلك اللحظة شاهدت سخانةً كهربائية. أوصل الرجل التيار الكهربائي حتى احمرّت الأسلاك الحلزونية. قال ثانية:

- أية يد؟

- هذه.

أحناه الرجل معه نحو الأرض، ووضع يده على تلك الأسلاك الحامية. ندت عن الفتى صرخة عجيبة، وتصبب موسى والآخرون عرقاً. ساورته فكرة ماذا سيجيب لو سئل، بأية يد كنت تكتب؟ الأفضل هو أن يستطيع المرء بتلك الأصابع المحروقة رمي هذه السخانة في وجهه. هل هناك أبعد من الموت؟ كان موسى ما يزال غارقاً في فكرته هذه حين ناداه الرجل. أنين

الفتى مستمر. يدور الرجل حول موسى كطير يحوم حول فريسته، وموسى يدور معه بانتظار تلقي ضرباته. بلل العرق ثيابه. فجأةً قرع الجرس. عرف أنه العبوس. خرج الرجل الضخم بسرعة ثم عاد. صرَّ على أسنانه قائلاً:

- إنه حظ أمك، لقد نجوتَ هذه المرة.

جلس موسى بثيابه المعروقة في المكان السابق وأمام الطاولة العالية نفسها. دار بينهما حوار صعب:

- لماذا لا تحب حزبنا، ولا رئيسنا؟

- أنا لا أحب السياسة.

- الانتساب لحزبنا ليس سياسة، إنه واجب قومي، وعمل وطني. هذه هي حقيقتنا.

- أنا أؤمن بشيء واحد فقط.

استيقظت كل الخلايا في جسم الرجل بانتظار الكلمة التي توقعه في الفخ. وانتظر الإجابة باهتمام:

- بمَ تؤمن إذاً؟

- أؤمن فقط بحقيقة واحدة، ألا وهي..... الموت.

- ماذا قلت؟ الموت؟ طبعاً الموت هو الجزاء الذي يناله الخائن.

- لا أسمح لنفسي أن أخون وطني.

- لا، لا. نحن لا نسمح لك ولأمثالك.

وحين قرَع الجرس ارتعب موسى، وجهّز نفسه لقضاء ليلة قاسية. دخل الحاجب:

- هات الاسطمبة!

لم يستوعب موسى طلبه، وظن أنه طلب إحدى أدوات التعذيب،

واستعد لذلك. لكن الرجل كان قد طلب اسطمبة الحبر ليبصم موسى على أقواله. وضع إبهامه الأيمن على الحبر، وبصم في أسفل الورقة دون أن يقرأ. وجد أمامه هذه المرة الرجل ذا الملابس السوداء الذي طلب إليه أن يتبعه. حين التفت إليه الرجل كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً:

- هل لديك أقارب هنا؟

- لا. ولمَ؟

- لتذهب وتنام عندهم، وتعود إلى هنا غداً في السابعة صباحاً.

- لا، أريد الذهاب إلى فندق.

- بإمكانك النوم هنا!.. ولكن عليك ألا تخبر أحداً أنك هنا، ولا سبب وجودك هنا.

- حسناً، سأكون هنا غداً في السابعة صباحاً. هل أستطيع الذهاب.

- نعم، اذهب!.

تغيرت كل الوجوه التي كانت في تلك الغرف الصغيرة، لقد غادر موظفو المناوبة النهارية وحل محلهم مناوبو المناوبة الليلية. كانت رؤوسهم تبدو لموسى كرؤوس فئران مسنة تطل من خلف الأضابير المهترئة. تنفس موسى بعمق عند الباب الخارجي. إنها المرة الأولى التي يخاف فيها من الظلام. يمشي مسترقاً السمع إلى وقع أقدامه.

«ماذا لو تلقيت ضربة من الخلف الآن؟!»

سمع وقع أقدام خلفه. احتار في أن يركض، أو يقف. التفت فلم ير أحداً. أراد الوصول بسرعة إلى سيارة. أحس بوقع أقدام خلفه تقترب منه، مع التفاتته وجد نفسه وجهاً لوجه مع الرجل الملثم ذي العينين الصفراوتين. ندت عنه صرخة لاإرادية. خاف الملثم وابتعد عنه. ناداه موسى بقلب كسير:

- صديقي، تعال يا صديقي!..

جلس وغطّ في بكاء على ما وصل إليه من حال. لم الشوارع خالية يا ترى؟ ما الذي أصاب الناس؟ لم تحول العالم إلى قرية خراب؟ أيقظه صوت سائق سيارة من شروده. انتبه إلى أن الناس ما زالوا في الشوارع، وأن كل شيء ما زال كما كان. سريعاً وجّه السيارة إلى مرجة. بحث عن فندق علي باشا. كان قد سمع أن كردياً من قامشلو يعمل فيه، إضافةً إلى رخص سعره. لم يكن الكردي موجوداً في تلك الليلة. مع أن الساعة بلغت الواحدة ليلاً، فإن بعض الأسرة كانت شاغرة. تذكر أمه. دله العامل المناوب إلى الهاتف. في الجانب الآخر من الخط كانت أمه تبكي وتقول كيف نئام يا بني وأنت هناك بين أيديهم! طمأن والدته. وخفف لها المسألة وذهب إلى غرفته. على السرير شعر بجوع شديد، وتذكر أنه لم يتناول طعاماً طوال ذلك اليوم. نزل إلى الأسفل كانت هناك بعض المحال مازالت مفتوحة. وبعد أن شبع وعاد، طلب إلى العامل أن يوقظه في السادسة صباحاً. في السابعة كان في قسم الأحزاب، في غرفة صغيرة بانتظار التحقيق. بعد أربع ساعات انتصب رجل واقفاً أمامه، وناوله بضع أوراق بيضاء:

- أجب عن أسئلتي بالتفصيل. لا تنس شيئاً أبداً، وإلا فسيكون وضعك صعباً.

إنها الأسئلة والتهم نفسها. كتب موسى أجوبته دون أن يظهر عليه التردد. المسألة بالنسبة له واضحة؛ لا علاقة له بهذه الأعمال الخطرة. بعد الظهر جاءه رجل آخر ومرةً أخرى طلب إليه تدوين إجاباته. كانت الأسئلة نفسها. في المساء رجل آخر وجه إليه الأسئلة. طُلِب إليه تدوين إجاباته صباحاً، مساء، وفي الظهيرة. في الظهيرة قال للرجل:

- دونت إجاباتي صباحاً.

- عليك أن تنفذ كل ما يطلب منك.

في المساء وضع الرجل أمامه كومة أوراق قائلاً:

- ألست مدرساً، إذاً اكتب!...

أدرك موسى أنهم سيقارنون بين إجاباته في الصباح والظهيرة والمساء، لذا دون إجاباته بدقة حتى لا يجدوا هناك تناقضاً بينها. دامت هذه الحال ثلاثة أيام. في اليوم الرابع شعر أن الغضب قد حلّ عليه، دخل عليه المناوب الصباحي حاملاً عصاً حادة الرأس وبدأ بتوجيه الأسئلة. حيناً يخز بطنَ موسى بالرأس الحاد، وحيناً يخزه في رقبته، فيبعث فيه ألماً ووجعاً. ولم يكف عن التهديد وعن القول بأنه يعرف كل شيء، وأن الإنكار لا يفيد، ولا حل سوى الاعتراف، لذا من الأفضل أن يعترف بالحسنى قبل أن يعترف بكل شيء وهو يتمرغ في دمه. هكذا انقضى يومه، دون أن يعترف أو يتمرغ في دمه. قبل انتهاء هذه الحفلة الكبيرة دخل شاب راكضاً وقال للرجل:

- سيدي، ألقينا القبض على أربعة عشر شخصاً منهم. ها هم في الأسفل. جلبت لك أسماءهم وعناوينهم. اعترف عشرة منهم وأعطونا أسماء رفاقهم. قالوا إنهم من قاموا بالتخريب وألحقوا الضرر بالوطن وبتمثال الرئيس.

قال الرجل حامل العصا غاضباً:

- حسناً، حسناً.. إني قادم.

في اليوم الثاني أيضاً، وحتى الظهيرة، كان يستمع إلى إجاباته تحت ضغط العصا. ما أدهش موسى هو أن الرجل كان يعرف كل ما دار بينه وبين أمه من حديث. لم يعد يعرف إن كان عامل الفندق عميلاً لهم، أو أنهم استمعوا إلى مكالمته دون علم صاحب الفندق. وفي مساء ذلك اليوم أدخلوه إلى غرفة مرتبة، ضحك في وجهه الرجل الجالس في تلك الغرفة. اقترب من موسى وهو يمزح ويمرح:

- لم أكن موجوداً خلال الأيام السابقة، ولا أعرف إن كان أحد رجالنا قد أزعجك هنا أم لا؟

ظل موسى صامتاً ومستغرباً.

- أخبرني إن كان أحدهم قد أزعجك! والله سأعاقبهم. أعلم أنك إنسان محترم ومثقف. طبعاً إن المعلم الكبير قد أوصانا بأن نقابل أمثالكم من المثقفين بكل احترام وتقدير.

كان موسى يستمع في صمت واندهاش إلى حديثه، ينتظر نهاية هذه اللعبة الساذجة. والآن أدرك أن مسرحية القهوة والعصا حادة الرأس تسير نحو النهاية. إنه يغلي من الداخل. أصيب بصداع، لأنه كلما قابل معلماً وجد هذا المعلم يتحدث عن معلم أكبر. قال في سره:

- لا أدري متى ستحل نهاية هؤلاء المعلمين.

- مشية المعلم الذي يجر قدميه دون أن يثني ركبتيه، بعثت فيه رهبةً شديدة. إنه يشحط رجليه خلفه شحطاً، وهو يذرع المكان جيئة وذهاباً، ويتحدث إلى موسى باحترام غير معهود.يظن البعض أن عصانا بيدنا بانتظار جلب الناس إلى هنا. لا، إننا نحافظ على المصالح القومية العليا لهذا الوطن، والحفاظ على هذه المصالح هو واجب على كل شخص. وأنت غداً ستتحدث للأطفال عن تاريخ هذا الوطن وهذا الشعب، بدءاً من التاريخ القديم، مروراً بسايكس بيكو، وحتى اليوم.

عاد شبح سايكس ثانيةً إلى الداخل. التفّ عليه المعلم الكبير من جهة، وسايكس من الجهة الثانية، يطوقه الاثنان بشكل هارمونيٍّ عجيب. يمسكان بتلابيب بعضهما، يسحب سايكس سيفه من غمده ويهاجم المعلم المنفعل. يلتفت إليه المعلم ويتقي ضربات سيفه. فجأةً- وكرجل كاوبوي- يتناول المعلم ذو الدم البارد مسدسه بحركة سريعة، ويطلق طلقةً

غادرةً في جبين سايكس. مع صوت الطلقة جفل موسى وشاهد المعلم ما زال يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً ويتكلم:

- .... لهذا يجب أن تكون مستعداً تماماً للتعامل معنا. أي لو أن منشوراً محظوراً وقع في يدك من أحد المندسّين الذين لا يريدون خيراً لهذا الوطن، عليك أن تخبرنا على الفور، لنستطيع معاً إنقاذ الوطن من المخربين.

قال موسى بصوت خافت لنفسه:

- هذا ما كان ينقصني، أن أصبح مخبراً !....

تابع المعلم الكبير:

- أنت شخص واعٍ ومحبوب من الناس، ويثقون بك. وبالنسبة لمسألة التعامل فهي مسألة سهلة، وأعدك بأن نلبي كل طلباتك، سواء كان على صعيد الوظيفة أو إن كنت بحاجة إلى مال، مهما كانت حاجتك سنقضيها لك. إنها عبارة عن رقم تلفون، بريد، وبالطبع فإن أعضاءنا في خدمتك في أي مكان، وأينما كنت، إنهم قادرون على الوصول إليك خلال دقائق.

- أعتقد أني لا أستطيع أن أفيدكم بشيء، لأنه لا علاقة لي بأية أحزاب أو منظمات محظورة.

- لا يهم. أنشئ علاقات معها ونحن مستعدون لفتح الطريق أمامك حتى منصب الرئاسة.

أصيب موسى بدوار، ولم يعد يعرف كيف ينقذ نفسه من هذا العذاب. كل همه الهروب من طلبات المعلم:

- أنا لا أحب السياسة.

- لا، لا يا أستاذ، أملنا كبير بأنك ستخدم بلدك.

لم يعد موسى يسمع صوته، فقد تغلب صوت صراعه الداخلي، صوت انفعالاته على كل ما عداه من الأصوات:

بعد الآن، لا أريد الهروب من هذا المكان فقط، وإنما من أبعد نقطة تصلها أياديكم، أريد الخروج، أريد الفرار، أريد أن أنام، أريد أن أموت. آه كم سيكون جميلاً لو أنني في مكان الخوف هذا، المكان الذي يجرد الإنسان فيه من كرامته وأخلاقه ومشاعره الإنسانية، لو أنني تحولت إلى جثة هامدة:

انتبه فجأةً إلى أن المعلم الكبير قد وضع أمامه ورقةً مليئةً بالكتابة ويخاطبه:

- ها إني أوقع على إخلاء سبيلك. ولكن لا تنسَ أننا سنلتقي مرات كثيرة، ها هي أرقام تلفوناتنا، والآن بإمكانك الذهاب.

لم يصدق موسى أذنيه. تناول الورقة من يده وهو يكاد يطير، شكره، وبسرعة اتجه خارج هذا الجحيم الضيق. توجه مباشرةً إلى الكراج ليعود إلى البيت، ويحقق أمنيته الوحيدة وهي أن يضع رأسه وينام، وينام إلى الأبد، حتى أوان الموت...

حقيقة إنه نام نوماً عميقاً تلك الليلة. استيقظ على صوت الجراد الذي كان يضرب بأجنحته نافذته. وقبل أن يتنفس بعمق أو أن يفكر بالكوابيس التي لقيها في الأيام الماضية، سار نحو النافذة ليتأكد مما تراه عينه. كان الجراد، كحجارة تنثرها العاصفة، تضرب بلور نوافذ الدور. لم يكن بإمكانه أن يطل برأسه من النافذة، لكن كان واضحاً له كيف أن الجراد قد سد الشوارع والأزقة. تجول بين الناس في المدينة، كانت الأحاديث تدور عن اختفاء الشيخ معشوق خزنوي. كان جالساً في مطعم في الشام. دخل عليه أناس وأخبروه أن بينهم نزاعاً وأنهم بحاجة إلى مساعدته. عائلة خزنوي عائلة دينية كبيرة. تسكن قرية «تل معروف»، إنهم أصحاب الطريقة النقشبندية. عندهم آلاف التلاميذ. ورثوا المشيخة عن جدهم الشيخ أحمد. ككل عائلة

كبيرة كانت غيوم الخلافات والصراعات تغطي سماء العلاقات العائلية، إلا أنه وقبل رحيل الشيخ الكبير يورث المشيخة لمن يراه مناسباً. وهكذا توارث المشيخة تباعاً الشيخ أحمد، معصوم، علاء الدين، عز الدين، محمد، وهكذا سارت الأمور دون خلافات كبيرة إلى ما قبل سنوات قليلة حيث دب الخلاف بين الشيخين الأخوين؛ عز الدين وعبد الغني. والآن قد ورّث الشيخ عز الدين الخلافة ابنَه محمد، ولم يسلمها لمعشوق. لكن خلافاتهم لم تصل أبداً إلى حد القتل. حين علا صوت الشيخ معشوق ضد الظلم الذي يلقاه الكرد، وحين اتضحت مواقفه الجريئة في سبيل استرداد الحقوق المسلوبة، اختفى فجأة. ومع اختفائه وجهت السلطات أصابع الاتهام إلى الصراعات العائلية. مع أن عائلته كانت ترغب الانشغال بالآخرة وبالسماء، إلا أن انشغاله إلى جانب هذه الأمور كان بضحايا آذار وبالظلم الذي يلقاه البشر في الدنيا. كان يرغب في عمل شيء ما. يرغب في التغيير، يرغب في أن يتعلم الأطفال لغة الأم في المدارس، وأن يكون هو نفسه الطالب الأول في مدرسة كردية. لم يكن يدري أنه سيخطف ويختفي، وأن رغباته تلك ستبقى مجرد أحلام. القصة تشبه فيلماً من أفلام الرعب، حددت بدايته، اختطِف الشيخ، ولا أحد يعرف مكانه، لا الأناس العاديون ولا غيرهم، ولا حتى كتبة التقارير ورجال الشم الذين لا يمكن لذبابة أن تطير دون علمهم. موسى ينتظر تداعيات هذا الفيلم الجديد. الفلم الذي أضيف إلى أفلامه السابقة. تخيل مرةً أن الرجل الملثم ذا العينين الصفراوتين يخطف الشيخ.

لكنْ، ما اسمه، وأين يسكن؟

إنه لا يعرف. ضحك من نفسه ولم يخبر أحداً عما تخيله. إنه مشغول بالجراد وبأشباه الجراد. احتار، وراح يسأل نفسه من أين جاء كل هذا الجراد، وكيف يمضي مثل هذا الطوفان في صمت. توجه إلى منزل قادو. بكت أمه وقالت:

- إني أشم فيك رائحة قادو يا بني.

- جئت أسأل عنه؟

- والله نحن أيضاً لا نعلم عنه شيئاً يا بني. أخبرنا مرة أنه في أوروبا ولم نسمع بعدها عنه شيئاً.

شعر موسى أنها تخشى من إعلان مكان إقامته. لذلك أخذ الموضوع برحابة صدر، وشيئاً فشيئاً عرف أنه في ألمانيا، ولم يحصل على الإقامة بعد. وقد قال إنه سيتسكع في هذه الدنيا إلى أن يجد له مكاناً. وانقطعت أخباره منذ ذلك اليوم. لم يبح موسى لأحد بما يختلج في صدره. الوطن صار وطناً للجراد، كل شيء فيه مصيره الالتهام، ولم يجد وسيلةً للخلاص غير الهجرة. هكذا كان يفكر؛ كان جالساً تلك الليلة في البيت، والقلم في يده يرسم خطوطاً على ورقة بيضاء. طريق تؤدي إلى الفرع ٢٣٥، والأخرى إلى أفواه الجراد، والثالثة إلى المقبرة، وآخرها تؤدي إلى خارج حدود هذا البلد العجيب. أياً كان فإنه أفضل سواء أكان الخارج أوروبا أم أمريكا، إفريقيا، وحتى لو كان جهنم الحمراء. حين خطرت هذه الأفكار بباله تلفت حواليه بخوف، خشي أن يكون حوله في تلك اللحظة من يقرأ أفكاره، وأن يقع في مصيبة. من يعلم؟ «كل شي ماشي» في هذا البلد. ليس في اليقظة وحدها، بل حتى في الأحلام، لم يكن الجراد يدع موسى وشأنه. يقف ذو العينين الصفراوتين أمامه، تطير من عينيه جرادتان، كل جرادة تحط على أحد كتفي موسى وتبدأ بالتهام أذنه. ينبعث ألم شديد وحرقة من صدغي موسى. مع جفلته المرعبة لم يكن يجد أحداً حوله. صار الناس يخافونه بعد عودته.

وكذلك هو، إنه يخاف من كل شخص.

حتى الجيران صاروا يحذَرونه، بعضهم يقول إنه قد اُختُرِق، وصارت له علاقات معهم، وإلا كيف أطلقوا سراحه دون أذى! لذا ابتعدوا عنه كي لا

ينالوا ضرراً من تقاريره، وبعض يقول إنه شخص خطر، فهو يراجع المخابرات كل عدة أيام، وصحبته قد تعود عليهم وبالاً، وقد تحل عليهم لعنة الدولة وحماتها الأشاوس. كلاهما يخلق لدى موسى مشاعر فاترة ويبعث في داخله ألماً عميقاً. في تلك الفترة حدثت ضجة كبيرة مع مقتل الشيخ معشوق خزنوي. رمى القتلة جثته في دير الزور. ذهب إليه أبناؤه. معها أظهروا بضعة أشخاص على شاشات التلفزيون على أنهم القتلة، وقالوا إن القاتل الرئيس قد فرّ وإنه ملاحَق من قبل الدولة. ومؤخراً قالوا إنه شوهد مقتولاً على سكة القطار. وأشيع أيضاً أنه ما زال حياً يعيش في تركيا.

قال المتهمون، لأن الشيخ قد خرج عن الطريقة النقشبندية، فإنهم خطفوه في الشام، وقتلوه في حلب، ودفنوه في الدير. والأحاديث تدور عن خنقه، عن أشكال التعذيب الممارسة معه حتى الموت، وعن سيناريوهات القتل، لكن أولاده أشاروا إلى قتلة أبيهم؛ أشار ابنه الكبير بإصبعه نحو المخابرات. الجنازة ما تزال في الطريق، وفي صمت تخرج الحشود البشرية إلى الشوارع كالنمل. لم يستطع موسى البقاء في البيت. ومن جانبه، وصل الغضب عند كالو كصديق مقرب من الشيخ، إلى السماوات؛ وضع كرته الأرضية أمامه وراح ينفخ فيها. وسار مع الناس في الجنازة وهو يركل كرته، ركلة إثر أخرى. وكل من ينظر إليه يهز برأسه أسفاً ويقول:

- لقد فقد كالو أيضاً عقله، لقد جن كالو!

شق آخر طريقه بين الناس، وقد أمسك بيد توتنو يجره خلفه، لم يستطع توتنو التخلص من يده:

- دعني وشأني، وإلا فإني، والله، سأضرب رقبتك بسيفي!

حين شعر الرجل أن توتنو سيفلت نفسه، وقف أمامه وقال:

- اهدأ يا رجل، سآخذك إلى ملك ملوك الأرض والسماء، سلطان هذا العصر وكل العصور!...

وقف الاثنان في هدوء، أشعل توتنو سيجارةً جديدةً من عقب القديمة، وعلق كرتونته في رقبته وقد كتب عليها بخط عريض:

- أنا ضد العالم!

سار معه دون أن يمسك يده وهو يقول:

- قلها من البداية يا رجل! فقد اشتقت أنا أيضاً لكالو. لا أعرف لم كف عن رواية القصص!؟

- يقول إن القصص انتهت بعد آذار. حين يسيل الدم يفقد الكلام معناه.

- كلامه صحيح.

حين أوصل الرجل توتنو إلى كالو كانت أسراب البشر تسير خلف الجنازة باتجاه المقبرة. كالو يحاول نفخ كرته، توتنو يهاجم محاولاً أن يغرز سيفه في الكرة، لكن الرجل يصده. فجأة، يُخرِج الرجل من كيس معه، كرة أرضية جديدة ويناولها لكالو. ينفخها كالو إلى أن تأخذ شكلها الكروي. يجتمع الثلاثة على الكرة. توتنو يدير الكرة ويبحث عن شيء ما. يدرك كالو أنه يبحث عن اسم لوطن.

- لا تتعب رأسك يا توتنو، لا يوجد اسم كردستان يا أخي.

يضع توتنو إصبعه على الكرة:

- هنا تلتقي حدود سوريا، تركيا، العراق، وإيران...

يغرز سيفه الخشبي، وبكل ما أوتي من قوة، في تلك النقطة. يعلو صوت انفجار الكرة. يتناول توتنو سيجارة ويخاطب كالو:

- الآن انفخها! يا خسارة تعبك يا كالو!..

كان موسى منشغلاً بتوتنو من جهة، ومن جهة أخرى يصغي إلى الناس المجتمعين عند قبر الشيخ معشوق، ويلقون الكلمات. يعلم أن ضجة

ستحدث خلال أيام عن مقتل الشيخ غدراً، بعدها سيدخل كل شيء عالم النسيان، والقتلة سيكونون طلقاء. في طريق عودته وفي الشارع المؤدي إلى بيته، سمع وقع أقدام الملثم ذي العينين الصفراوين. أبطأ في مشيته، كي يقترب الملثم أكثر. كان يرغب أن يلتفت إليه، ويطارده بكل قوته، كي يزيل اللثام عن وجهه، أو عن وجهها. من يدري، قد يكون هذا الشخص امرأة، وقد يكون من الجن أيضاً. فجأةً رأى ذا العينين الصفراوتين يمشي في الجانب الآخر من الطريق، وينظر إليه من طرف عينه الصفراء. انتابته رعشة تسلقت جسده، ساور قلبَه ثانيةً هذا السؤال:

- من يكون هذا الرجل يا تُرى؟!

وحين تأكد أنه غير قادر على اللحاق به، أسرع ودخل داره، أغلق الباب وتمدد على السرير. انتابه ألم شديد في مؤخرته. مد يده إلى البثرة شعر بوجع وحرقة فيها، كانت قد كبرت أكثر. تعرى سريعاً، ووقف بين مرآتين. وجد رأس البثرة قد احمرّ، وشعر أنها تطول يوماً بعد يوم. فكر في مراجعة طبيب، ولأنه عرف أن لا نتيجة للمسألة فقد طرد كل هذه الأفكار من رأسه:

- عليّ أن أتخلص من هذا الوضع، ولكن قبل ذلك يجب أن يكشف من كان سبباً في خلق هذا الواقع الذي نعيشه. من خلّف كل هذه الجرائم خلفهم غير أولئك الذين وقعوا على الاتفاقيات والمعاهدات التاريخية. من هم الذين جلسوا في ذلك اليوم خلف الطاولات في لوزان وقرروا؟ أي حق لسايكس وبيكو على أناس هذه البلاد حتى....

شعر موسى أن التاريخ طوق حديدي يطوق عنقه، يضيق شيئاً فشيئاً ويضغط عليه. يكاد رأسه أن ينفجر. كان يرغب في أن يسحب كل الأحداث والمعاهدات التاريخية من ذاكرته كما تُسحَب الشعرة من العجين، ويرميها بعيداً، حتى يستطيع أن يعيش يومه. يرغب أن يعيش، كهؤلاء الملايين

من حوله والذين بُرمجوا حسب أهواء عصرهم. لا يشغل رأسه بالأحداث الماضية ولا بالأحداث القادمة.. كان يرغب، ولكن... لم يستطع. في تلك اللحظة كانت تجول في رأسه أمنية وحيدة:

ليت صوتي كان جميلاً. ليتني كنت قادراً... لغنيت في هذه الدقيقة، وغنيت.. وغنيت.

ما أكثر الأغاني الجميلة، التي تريحه. مع انتهاء الأغنية كان ينتابه شعور من يسقط من جبل، الزمن الذي تستمر فيه الأغنية الجميلة زمن مخادع، فكل شيء، بعد انتهاء الأغنية، يعود إلى ما كان عليه، بل وأكثر فتوراً. لذلك وحتى يشعر الإنسان بتلك اللذة عليه أن يغني بنفسه، لا أن يستمع إلى غيره. ومن جهة أخرى كان ينفر من الكتب. رغم وجود كتب كثيرة ممتعة، لكن خوفه يزداد مع القراءة.

كان يقول لنفسه، الكتب تخلق الخوف!.

تبعد الإنسان عن حقيقته، تزيد الأحلام.

في ظل واقع كهذا فإن الكتب الممتعة تجلب معها الكوابيس. يخرجون حتى الكتب من جلدها. كل أحاديث الرئيس الخالد صارت كتباً، يقال عن كل زياراته، أحاديثه، عطسه، وعثرات قدمه، على أنها أحداث تاريخية! كلمته التي ألقاها في يوم الجيش في الجنود، تاريخ. وكذلك في الطلبة، في يوم الفلاحين، يوم المعلمين، المحامين، الموظفين، وكذلك في يوم العمال. طبعاً فهو الجندي الأول، الطالب الأول، المثقف الأول، العامل الأول، الأب الأول، الرئيس الأول وإلى الأبد...

شعر موسى برأسه يغرق في الضباب...

كان سايكس المديد القامة يقبل نحوه مسرعاً الخطى، يسرع ويسرع، وقبل أن يصل إليه ينشق جسم سايكس ويخرج منه تمثال الرئيس الخالد.

ينظر موسى محتاراً، وتصيبه رعشة كبيرة، وبالأخص حين يخرج الرئيس الخالد بنظراته التاريخية من تمثاله ويتقدم نحو موسى. يتكلم موسى لكنه لا يسمع كلامه، يريد أن تصل صرخاته إلى أي شخص، لكن الخرس يصيبه ولا أحد يسمعه، يريد الفرار لكن ركبتيه لا تساعدانه، وقبل أن يمد الرئيس يده إليه بالتحية يجفل مرعوباً ليجد نفسه واقفاً مسنداً ظهره للجدار وسط أحلام اليقظة هذه.

فيصل، هذا هو اسم الشخص الذي سيهجّره إلى أوروبا؛ رجل في مقتبل العمر، ذكي، يقال إنه يتحدث خمس لغات، وأنه قد جاب كل أصقاع الأرض، ورجاله في كل مكان. عمله محصور بين قامشلو والشام. استطاع موسى الوصول إلى شخص يقال له «مفتاح فيصل»، لأنهم -وعلى ذمة الرواة- يعملون سراً، ولا يريدون لأسرارهم هذه أن تنكشف. وهذا المفتاح كان هو نفسه «الشخص الثالث» الذي سيؤمّن المال لديه إلى أن يصل موسى إلى أوروبا، هكذا كان الاتفاق. أدرك موسى مؤخراً أن للمخابرات نصيب في هذه الأموال. أما المطلوب من موسى أن يضع جواز سفره لدى فيصل، والمال عند «مفتاحه» وألا يخبر أحداً سوى أسرته. بعد الاستدعاءات الأمنية المتكررة أدرك موسى أن المسألة لا تنتهي على خير، وخشيت الأسرة أن يأتي يوم يختفي فيه موسى أو يحمل على نعش. لذا باعوا كل ما يملك حتى استطاعوا تأمين ثمن إخراجه؛ هذه الـ «أربعة آلاف». يؤجل فيصل سفره من يوم الإثنين إلى الإثنين الذي يليه، وهكذا.. لكنه صدق في كلامه عندما تحدث إليه في الهاتف:

- ودّع أسرتك، ويجب أن تكون غداً في حلب.

في حلب أدرك أنه متجه إلى قفقاسيا، إلى بلد اسمه قرغيزستان. قيل له إن شخصاً سينتظره هناك، وإنه ليس بحاجة إلى فيزا، لأنه سيحصل عليها في بشكيك «عاصمة تلك الدولة» بأقل من مئة دولار:

- هذا هو رقم تلفون الشخص الذي سيستقبلك هناك.

حين ناوله الورقة، ذكّره موسى بالاتفاقية المبرمة بينهما شفاهاً. أجاب فيصل مبتسماً:

- لا تخف ياه! هذا شغلنا! اتفاقنا هو حين تنزل في بلد أوروبي ستتحدث تلفونياً عندها سنقبض المال، لن نأكل مالك، لا تخف، اركب وسيسير كل شيء حسب الخطة.

كان موسى قلقاً، متردداً. إنه فرح من جهة فخطة خلاصه من هذا الواقع تسير نحو النهاية، ومن جهة أخرى فإنه مهموم لأن الطريق طويلة وشائكة، ولا يستطيع الوصول مباشرةً إلى أوروبا، لا يستطيع الوصول مباشرة إلى مأوى حقوق الإنسان -الاسم الذي أطلقه، بينه وبين نفسه، على أوروبا-. في المطار ناوله فيصل إضافةً إلى جواز سفره ورقةً أخرى سيصعد بها إلى الطائرة. وقبل أن يودعه فيصل أدرك أنه متجه إلى بلد على حدود الصين وكازاخستان. وجميع الركاب الذين معه تقريباً من الروس. ما لفت انتباهه هو أن مع كل راكب حوالي عشرة أكياس مليئة، يبدو أنهم تجار قد اشتروا مختلف البضائع من حلب، وسيبيعونها في تلك البلدان. وقبل أن يذهب فيصل رآه موسى يتكلم اللغة الروسية مع المسافرين بطلاقة. ربت على ظهر موسى وخرج مسرعاً من بين المسافرين. قدمت الطائرة بعد ساعتين. صعد موسى مع بقية الركاب. لقد كوّموا أكياس بضاعتهم حتى داخل الطائرة، بحيث احتلت البضاعة مكاناً أكبر مما احتله الركاب. ومن جهة أخرى جلست الروسيات على الأكياس المملوءة أحذية وأقمشة، متقابلات وهن يتحدثن. الطائرة أشبه بتلك الباصات القديمة التي كانت تنقل الركاب إلى القرى. جلس موسى في مكانه صامتاً. حتى تلك اللحظة التي هدرت فيها الطائرة، ما كان موسى يصدق أنه يغادر هذا المكان، هذا البلد، كلياً، إنه يعتقد أن رجل مخابرات يمكن أن يقف أمامه في الدقيقة الأخيرة ويقول له:

- وهل صدقت أنك تستطيع الخلاص من أيدينا بهذه السهولة؟!

ما إن علا هدير محرك الطائرة حتى شعر بلمسة يد على كتفه. مع لفتة الرأس علقت عيناه بعينين صفراوين باردتين تجمد فيهما الموت. كاد موسى يرمي بنفسه من الطائرة، تملكته رغبة في أن يمسك بتلابيبه ويرمي به وبنفسه خارج الطائرة. صاح بصوت عال:

- يا إلهي! من أين خرج لي هذا؟

أعادته إلى رشده كلمات الراكب بجواره:

- هل تخشى ركوب الطائرة؟

رد موسى ببرودة:

- لا، ولكني أخاف من كل شيء؛ الخوف ساكن في أعماقي.

ألقى نظرة سريعة إلى الخلف، امرأة شقراء تتحدث إلى رفيقتها، كل شيء طبيعي، ولا أثر للخوف في المكان، إنما الخوف يساوره فقط من الداخل، سؤال وحيد لا يغادر رأسه:

«هل يا تُرى سأستطيع الخروج بسلامة من هذا البلد القاتل أم لا؟».

كان يرغب في أن يشعر أن هذا البلد بلده، في أن يشعر بالألم والأسى كغيره من الذين يهاجرون أوطانهم، لكنه لم يستطع. لم يشعر بأنه وطنه وأنه سيتركه، بل يشعر به قطعة حديد مربعة الشكل تضيق حلقتها على عنقه، وأن هذا اليوم هو يوم الخلاص، يوم الحرية، إضافة إلى ذلك فقد كان الأسى يلوك صدره. انتابه مزيج من مشاعر مختلفة. ضغط عليه البول، إنه يريد أن يدير ظهره لهذا البلد الغريب، وألاّ يعود إليه إلى أبد الآبدين، لكنه قبل هذه الرحلة التي لا عودة بعدها، يريد أن يبول على هذه الأرض مقابل تمثال الرئيس الخالد. لكنه يعود ويناجي نفسه: لكن، ما ذنب هذه الأرض، وما ذنب هذا البلد المسكين أصب عليهما اللعنات؟! هذا المزيج

من الرغبات المختلفة أغرقه في أمواج الخيال. كان يعلم أن علاقته ببلده قد أصابها العرج، وأنه ينفر من بلده، ينفر نفوراً مليئاً بالمحبة. سابقاً كان يخاف أن يبقى في هذا البلد، والآن يخاف أن يعتقل قبل مغادرته. لكن، ها هي الطائرة البلقاء المليئة بالأقمشة والأحذية والمهاجرين والروسيات، تعلو. في تلك اللحظة شعر موسى بأوصاله تتقطع، تتصدع، كبناء مليء زجاجاً وقد أصابه زلزال، انكسر في داخله ألف مصباح ومصباح مطْفَأ. إنه لا يعلم بالضبط ما هي الأشياء التي انكسرت بداخله، ولكنه على يقين أن ما انكسر لن يُجَبَّر أبداً. نزل في مطار بشكيك. كان في انتظاره هناك فيصل آخر؛ طويل القامة، وجه مائل إلى الحمرة، أجعد الشعر. أمّن له الفيزا وأخذه معه:

- الحمد لله على السلامة، اسمي فيصل.

- أنت أيضاً فيصل؟!

- نعم، لم أنت مندهش؟

- لأن الذي أرسلني إليك اسمه أيضاً فيصل.

- إنه فيصل مزوَّر. أنا الحقيقي. وهذه بطاقتي الشخصية إن كنتَ لا تصدق.

أدرك موسى أن هذا هو فيصل الحقيقي، وأن الآخر يحمل أسماء كثيرة. المهم لديه هو أن فيصل أمن له مسكناً. كما عرف سريعاً أن فيصل طالب يدرس في هذا البلد، وأنه يعمل كمهرّب إلى جانب الدراسة. وأخبره أنه سيلزم هذا البيت أياماً أو شهوراً إلى أن يجدوا له طريقاً إلى أوروبا. ولكن كيف، ومتى؟ هذا ما لم يكن لا موسى ولا غيره يعلم!.

القلب بيت مكسور الباب والريح ربة هذا البيت.

أخذني فيصل إلى بيتٍ خالٍ؛ بيتٍ يتألف من غرفتين وحمّام ومطبخ واسع. طلب إليّ ألا أفتح الباب لأحد، وأنه سيزورني بين الحين والآخر:

- هنا طعام يكفيك، سأدعك ترتاح اليوم، وسآتي إليك غداً.

جاء الغد، أتى فيصل وطاف بي في شوارع بشكيك. شعرت براحة كبيرة حين لم أجد حولي صور الرئيس الخالد ولا تماثيله. يوماً فيوماً تعرفت إلى المدينة أكثر، وعرفت طرق الذهاب والإياب. علمت أن حوالي سبعمائة ألف شخص يعيشون في هذه المدينة. يبلغ عدد سكان القرغيز عامةً حوالي ستة ملايين. بعد انهيار الاتحاد السوفييتي حصلوا على استقلالهم دون إراقة نقطة دم. يوماً فيوماً يقل عدد الروس في بشكيك. كانت علاقات الشباب الذين عرفني إليهم فيصل أقوى مع الروسيين من علاقاتهم مع القرغيز. في أول خروج سار بي فيصل إلى مطعم جابرو الذي رحب بنا بحرارة. كلما تعرفت إلى شخص فإن فيصل يتحدث لي عنه وعن وضعه. جابرو أقدم شخص في هذه المدينة من بين الذين جاؤوا بقصد الدراسة، والده مسؤول في الحزب الشيوعي في قامشلو. كان النظام السوفييتي يخصص لحزبهم منحاً دراسية، ووالد جابرو ورفاقه كانوا يبيعون هذه المنح للطلاب. وبعد انهيار السوفييت فتح له والده هذا المطعم وبدأ يعمل في التجارة. جابرو أغنى الطلاب الكرد هنا، يريد أن يجعل من المطعم مطعمين وثلاثة. لم يأخذ منا ثمن الطعام في ذلك اليوم، واعتبره طعام ترحيب، ثم وعدني أن يدعوني إلى شيء ألذ من الطعام، هذا الشيء اسمه ناتاشا.

- من يزر هذا البلد ويغادر دون أن يذوقَ ناتاشا، فإن زيارته لا تعتبر زيارة.

من الصعوبات التي لقيتها، السير على الثلج، وعلى الأخص صباحاً حيث الصقيع يغطي كل الشوارع. رأس السنة يقترب، ومعه حياتي الجديدة أيضاً. يقول فيصل:

- سأبذل كل جهدي كي تقضي رأس السنة في أوروبا.

أخبرني أنه يحاول الحصول على جواز سفر قرغيزي، يلصق عليه صورتي ليحصل لي بوساطته على فيزا دولة أوروبية. بدا لي أن عدد الطلبة الكرد في هذه المدينة يصل إلى الأربعين. تعرفت إلى ثلاثة منهم غير فيصل وجابرو؛ جلال الذي تحدث لي عن كل ما يخصهِ في الجلسة الأولى؛ هذه هي السنة الرابعة لمجيئه إلى هنا، داوم في الجامعة ستة أشهر فقط لتعلم اللغة، وبعدها صار عمله تغيير النساء، حيث تعلم اللغة أكثر بوساطتهن. يقول عنه الذين حوله أنه يتحدث الروسية بشكل جيد لكنه لا يتقن الكتابة. في نهاية كل عام دراسي يدفع ألف دولار وينجح إلى صف أعلى. يقول في السنة الثالثة في الجامعة، كان يخاف أن يحصل بهذه الطريقة على الشهادة ويعود إلى بلده كصيدلاني ويفتح صيدلية. يحلف أنه لا يعرف إلى الآن أسماء حبوب وجع الرأس. على عكس زميلهم علي الذي يهتم بدراسته من جهة، ومن جهة أخرى تأهل مع امرأة روسية وأنجبت له ولدين. والآخر هو سيامند، الذي أهمل الدراسة، ويعمل في تجارة الحشيش والكوكائين، والمعروف بشرب الفودكا. وقد أطلق الطلبة فيما بينهم على الفودكا اسم «ماء سيامندو». وحين كان الأربعة يلتقون عندي فإنهم كانوا يلعبون «الشدة». وفي أغلب الأحيان لم يكن أحد منهم يحمل قلماً. كنت أقول لهم بعصبية:

- أي طلاب أنتم! طلاب دون أقلام؟!

يبدو أنهم لم يكونوا بحاجة إلى القلم إلا لكتابة حساب لعبة الشدة. وكلما سألت فيصل عن يوم رحيلي، فإن جوابه كان حاضراً:

- الصبر مفتاح باب الفرَج. ألم تقل لك جدتك هذا المثل؟

نعم، كانت تقول، لكن باب القبر انفتح أمامها قبل أن يُفتَح باب الفرَج. جوابه هذا كان يربكني أكثر. ما كان ثلج قرغيزستان يذوب، ولا غليان قلبي، المكسور الباب، يهدأ. بعد مرور شهر بدأت أفقد الصبر، كما بدأ المال الذي حملته معي يقلّ. ينشغل فيصل بنفسه وبعمله، ويتركني وحيداً. مرت ثلاثة أيام. في اليوم الرابع بلغ مني الغضب أوجه، وما إن فتح الباب حتى انفجرتُ في وجهه:

- أخي.. أخبرني الحقيقة، إن كنت لا تستطيع إرسالي إلى أوروبا فإني سأعود إلى بيتي. ها قد مضى شهر و....

أقبل سيامند قبل أن أكمل حديثي. عرفت أن الغضب قد أعماني في تلك اللحظة، وأنني لم أشعر بقدوم سيامند.

- على مهلك يا موسى. لم نشبع من رؤيتك بعد!

- ما جئت إلى هنا للسياحة يا سيامند!

- صحيح، لكنك سترتاح غداً حين نذهب إلى أم الكرد.

ضحك فيصل وأعطاني معلومةً جديدة:

- بكل تأكيد سيكون جواز سفرك جاهزاً خلال هذا الأسبوع.

- هذا الأسبوع، وهذا الأسبوع.. يبدو أنه لا نهاية لأسابيعك.

التفت إلى سيامندو:

- ومن هي هذه أم الكرد؟

مساء اليوم التالي جاء إلي فيصل وسيامند. تحدثا في التلفون بالروسية. وفي الطريق شرحا لي أنها امرأة كازاخية، أطلقنا عليها اسم «أم الكرد»

لأنها تهتم بنا كأم. كلما تعمل عندها فتاة جديدة تكون في الليلة الأولى من نصيب أحدنا، وكلما تأتي إليها امرأة جميلة جديدة، تخبر أحدنا في التلفون قبل أي كان.

ولأننا طلبة فإنها تراعينا في السعر وتعمل حسماً خاصاً لنا. على هذا المنوال راح فيصل وسيامند يسهبان في الحديث عنها ويمدحانها. وحين دخلنا قدمني فيصل لها كأخ عزيز. تحدثوا إلى بعضهم بالروسية، وتناوبا في الترجمة لها، قالت المرأة السمراء الباسمة:

- الآن أربع نساء في طريقهن إلي، ولينتق أخوك منهن من يشاء.

بعد لحظات قُرع الباب. فتحت المرأة الباب وجاء صوتها مرحبة، اصطفت أمامنا أربع نساء، إنهن يتحدثن مع بعضهن بالروسية، وأنا وسيامند بالكردية. رأيت كل واحدة منهن أجمل من الأخريات. وحين رآني سيامند فاغر الفم قال ضاحكاً:

- إنك مندهش يا صاحبي لأنك قادم حديثاً من الوطن. إنهن لسن جميلات، فلتطلب لنا من هن أجمل.

لا أعلم لم كانت النساء الصافات أمامنا يضحكن. بان السن الذهبي لإحداهن، حدق فيها سيامند وقال:

- ومن هي هذه ذات الفرج الذهبي؟ لقد جلبت لنا العجوز نساء بفروج ذات أسنان!.

حين تحدث إليهن سيامند بالروسية أدركت أنهن يستعدن للمغادرة. قبل مرور خمس عشرة دقيقة حضرت فتاتان، إحداهما ضخمة والأخرى صغيرة الجسم. نظرت إليّ الصغيرة وابتسامة خفيفة على شفتيها، وهزت رأسها وكأنها تقول ها قد التقينا، اخترتها دون تردد. لا أعلم لم تذكرت في تلك اللحظة الغريبة ليلى. سرت في دمي رعشة خفيفة. غادرت الضخمة،

ورافقتنا الأخرى؛ لينا. في الطريق التفتَ إلي فيصل ومدّ يده إلى حقيبته:

- كم (كوندوماً) تريد لهذه الليلة؟

كانت لينا تصغي إلينا. أجبته ضاحكاً:

- ربما تفي ستة منها بالغرض.

أخبر لينا أنني أريد ستة. اندهشت لينا، وارتمت على يده قائلة:

- أعطه اثنين، اثنان كفاية.

أوصلنا فيصل تلك الليلة إلى حيث أقيم، وبقي معنا بعض الوقت يترجم، ثم غادرنا قائلاً:

- لم تعد بحاجة إلى المحادثة والكلام، ولكن حافظ على الفتاة حية هذه الليلة!

قال ذلك وغادر. بقينا أنا ولينا وحدنا. جسدان جائعان، أربع عيون حائرة، كان علينا أن نتحدث كالصم والبكم بالإشارات. لم تطل الحالة، فقد بدأت هي قبل أن أبدأ. فجأةً هاجمني خوف عجيب. تذكرت أن من حولي كلهم يتكلمون لغةً لا أفهمها. كما أن هذه المرأة العارية المنسوجة من نار مجنونة مشتعلة تجهل ما أصابني؛ أنا ابن الخوف، وما تركت خلفي من ويلات وخوف وموت إلى أن وصلت إلى هذا الثلج الكافر. رغبت في أن أروي للينا قصتي وليلى، ولكن كيف؟! رغبت في أن أضع أمامها هذه الينابيع الجافة التي انفجرت -الليلة - دفعةً واحدةً بداخلي، وأنحني كراهب أمام قدها المتناسق. قلبي يقول:

أسفي على هذا الجمال الذي سيسلب مقابل بضعة دولارات. تحرشت بي لينا، وكان رأسي يبحث عن صدر دافئ. وحين التفت شفتاي على حلمة نهدها الأيسر انفجرتُ في بكاء دون توقف. أربكها بكائي راحت تمسح دموعي. ازدادت وتيرة بكائي، قلت لها:

- إني أخاف.

لم تفهم ما أقول، لكنها مع ذلك راحت تواسيني بلغتها. قامت وجلبت سيجارتين. دخنّا السيجارتين في صمت. في المحاولة الثانية تحولت لينا بين يدي إلى دمية بلاستيكية من دمى الأطفال؛ دمية دافئة معجونة من سكر وحليب، آكلها حية. ولو اجتمع علي في تلك اللحظة سبعون رجلاً لما استطاعوا تخليصها من بين يديّ. مع انطفاء براكين عواطفي هويت كجمل ميت. أشعلت لينا الضوء، وأرتني البقع الحمراء التي خلفتها على جسدها. فهمت أنها تريد مني ألا أكرر ذلك، وأن أمارس معها العلاقة بهدوء. لكن لم تتكرر المحاولة تلك الليلة. بعد أن غادرت لينا صبيحة اليوم التالي، جاء فيصل ونظر مباشرةً إلى الكوندوم قائلاً:

- أسفي على الرجال! كل تلك الجعجعة من أجل مرة واحدة فقط؟! والله كنت أعتقد أني سأرى العلبة فارغة.

مع ضحكة فيصل شعرت أن روحي تتألم وأنني بحاجة إلى علاج:

- إنني بحاجة إلى حب، حب.

سيطرت عليه ضحكة عالية:

- لا تقل لي أنك وقعت في غرام لينا! هاهاها... كل قادم من الوطن يقع في البداية، في غرام عاهرة.

آلمتني هذه الكلمة الأخيرة. تأسفت على جمال لينا، على قلبها الرقيق الذي حنّ عليّ ليلة البارحة. كانت هذه المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها لينا. مؤخراً عرفت أنها قد أخبرت أم الكرد أنها قالت عني بأني مريض ومسكين. لم يكن في تلك البقاع شيء يخيفني، كما يخيفني هذا الثلج اللامتناهي، ولا أدري لماذا كان يذكرني دائماً بالانتحار. بياض كهذا لا متناهٍ، يشبه السواد اللامتناهي، يشبه الموت. أحياناً كانت الشمس

تشرق، لكنها كانت شمساً هزيلة، كأن روحها تجمدت. تشرق وتغيب في خجل. مرةً عدت إلى البيت متأخراً وجدت فيصل قد سبقني. كان عابساً صامتاً، وعلى جانب عينه اليمنى أثر جرح حديث. أخرج جواز سفري المزور من جيبه، كانت صورتي على إحدى صفحات الجواز، ولكني لم أفهم ما كتب عليه:

- ها هو جوازك جاهز، بقي أن أحصل لك على فيزا من إحدى الدول الأوروبية.

يجب أن يفرح المرء لخبر كهذا، ولكن لِمَ يبدو مهموماً إلى هذه الدرجة، وما هذا الجرح؟ قبل أن أسأله روى لي قصة الشجار:

- الشخص الذي وقع بيني وبينه الشجار هو أحد أصدقائك القدامى.

يومها علمت أن هناك أشخاصاً غيري ينتظرون أن يرحلهم فيصل إلى أوروبا. بينهم رمو الذي سبقني في المجيء بحوالي شهرين من الزمن، واليوم قد هاجم فيصل بزجاجة فودكا مكسورة، طالباً منه إما أن يعيده إلى بلده أو يرحله إلى أوروبا. كان رمو ثملاً وقد طلب من فيصل أن يجد له حلاً سريعاً، وحين أراد فيصل التملص، ضرب رمو بزجاجة فودكا الحائط، وبالزجاجة المكسورة جرح وجه فيصل، ولو لم يصد فيصل الضربة بيده لربما كان يعاني الآن سكرات الموت، وطلب إليّ أن يجمعنا معاً إلى أن يجد طريقة. وكأنه يقرأ أفكاري، قال بثقة:

- ستنفرج عليك وعليه أيضاً، ولكن الأمر بحاجة إلى بعض الصبر. والله لو كان الأمر بيدي لأدخلتكما الطائرة الآن، ولكن لست المعنيّ الوحيد بالأمر.

لا يريد رمو أن يفهم هذه النقطة.

في اليوم التالي دام لقائي مع رمو ساعات. بات عندي تلك الليلة،

وأخبرني بما لم يخبرني به فيصل:

- وصلت إلى هنا ومعي ألف دولار، أخذها فيصل مني. أسكنني في هذا البيت لوحدي، وبقائي هنا مخالف للقوانين، لقد انتهت مدة الفيزا، ولا أتقن اللغة، لقد حوصرت هنا كسجين.

حين أدرك أن وضعي كوضعه، ارتاح إلى حد ما، قال، ولو بعدم ثقة:

- فلننتظر. يا لحظي! لا أدري لم سدت كل الطرق.

أيقظتني كلمات رمو من غفوتي وجعلتني أسرع مباشرةً إلى كولبة التلفون. لم تستطع أمي أن تصدق أنني ما زلت في الطريق:

- أبعيدة أوربا إلى هذه الدرجة يا بني؟! كان يجب أن تكون هناك حتى لو سافرت على ظهر حمار!

مع أنني كنت قد قطعت الأمل من مجيء سمكو، إلا أنني فتحت له التلفون، أجابني هو نفسه. علمت أنه يخاف أن يتحدث إليّ «على المكشوف»، أخبرني فقط جملةً واحدةً ذات معنى:

- إننا مقيمون وسط الجراد.

اتجهت وحيداً إلى الثلج. امتلكتني رغبة في أن أدفن في قبر من ثلج. شدني التاريخ مرةً أخرى. أردت أن أعرف تاريخ هذه البلدان أيضاً. لا يبدو أنهم عانوا ما عانيناه من عذاب وآلام. فجأةً شاهدت الثلج ينشق وينقلب، أطل سايكس برأسه وضحكة بيضاء كالثلج على وجهه، قال لي:

- ها إنك هنا؟

- إي والله، إني أبحث عنك.

- لا حاجة لأن تذهب بعيداً، فأنا دوماً بجانبك.

- لا، لا أريدك كخيال. جئت إلى وطنك لأراك عن قرب.

ضحك سايكس بسخرية وقال:

- موطني هو رأسك. لم تبحث عن موطني؟

- لأراك، ونتواجه كرجلين ونناقش. لو أقتربْ منك الآن ستختفي، هذا لا يجوز. قطعت عهداً على أن أحاسبك على هذا التاريخ التراجيدي.

- اتق الله يا رجل! لقد حمّلتَني أسباب كل هزائمك....

فجأةً انطبق الثلج على سايكس وابتلعته. مع اختفاء سايكس شعرت بأطرافي قد تجمدت. في البيت كان فيصل ومعه رجل في الخمسين ينتظرانني. قام فيصل بمهمة التعارف بيننا. الرجل صياد الصقور، لقد قدم من حلب، ليخرج إلى الصيد في براري كازاخستان. الصقور التي تبدأ أسعارها بألف دولار، وترتفع إلى خمسين ألف دولار. وما كانوا يصطادونه هناك من صقور كانوا يهربونها إلى السعودية، الكويت، قطر، والإمارات، يبيعونها لملوك وأمراء العرب. صيد مثل هذه الطيور ممنوع في كل أنحاء العالم، لكن هؤلاء الصيادين القادمين من أصقاع الأرض البعيدة، يشركون معهم قوى حفظ البيئة، حيث يعطونهم حصتهم كي يغضوا النظر. وحين يخرجون إلى الصيد دون أن يروا تلك القوى، يجب عليهم الاختباء عن عيونها، وإذا ما صادفتهم عليهم الهرب ومن ثم الدخول في مقايضات جديدة. وكان فيصل والطلبة الآخرون يعملون معهم كمترجمين. لم يستطع الطرفان الشريكان في الصيد العمل معاً دون وجود مترجمين يتقنون العربية والروسية، وعلى هذا الأساس لم تكن حصة المترجم قليلة. فترة الصيد هي ثلاثة الأشهر الأخيرة من السنة. يقول الصيادون إن هناك أنواعاً جيدةً من الطيور يمكن صيدها حتى شهر من بعد رأس السنة. قدم إلى تلك البلاد صيادون كثيرون، ولكن كان على ذلك الرجل الخمسيني، شريك فيصل، أن يسكن معي طوال فترة الصيد. ومنذ ذلك اليوم كان فيصل

وشريكه الصياد ينتظران منذ الصباح الباكر سيارة الجيب العائدة لبرو. برو كردي من كرد كازاخستان. يصل عدد الكرد بشكل عام في ذاك البلد إلى خمسة عشر ألفاً. ليس هناك فقط، بل إن آلاف الكرد في كازاخستان مازالوا يتكلمون لغتهم، ويعيش معظمهم في القرى. لقد وزّعتهم السلطات في زمن ستالين في تلك القرى واستمروا على تلك الحال. انشغل فيصل بالصيد في تلك الأيام. كنت ألتقي رمو بين الحين والحين، كنا نتقاسم آلامنا وهمومنا، تملكني اليأس وأنا أنتظر الحصول على فيزا لجواز سفري المزور. مع أن فيصل كان يحاول أن يمنحني الأمل إلا أن الأيام كانت تمضي، تتبعها الشهور والأعوام. فيصل، هو الآخر، يرغب في أن يخفف عنا، لكنْ يبدو أن كل محاولاته كانت تفشل. ذكّرني مرةً بوعد نسيته:

- كان جابرو قد وعدك. واليوم سيأتي ليأخذك ورمو إلى ناتاشا.

بعد الظهر أتى جابرو بسيارته، حملني، وفي الطريق حمل رمو، وسار بنا إلى مطعم أكبر من مطعمه وأحسن. جلسنا. توجهت إلينا امرأتان جميلتان، سلمتا على جابرو، قبلتاه، وجلستا معنا. وحين قام جابرو بعملية التعارف، لفتت ناتاشا انتباهي. قامة عالية، «ناصحة»» بيضاء، وذات شعر أسود. تستطيع –بعينيها الوحشيتين- إحداث مئات الزلازل في داخل الرجال من أمثالي. أخبرها جابرو بالروسية أشياء، وأخبرنا بلغتنا شيئاً آخر:

- ناتاشا هذه، هي الوحيدة التي كدها حلال.

- ماذا تقصد؟

- يعني كدها في منح الرجل في ممارسة الجنس مقابل ما تحصل من مال، كد عظيم، يفوق ما تأخذه عشرات الأضعاف. غيرها لا يتعبن أنفسهن، عيونهن على النقود فقط، أما ناتاشا فإنها تعمل بإخلاص شديد. فليكثر الله من أمثالها.

لا أدري لم خطر على بالي هذا السؤال:

- لم اسم ناتاشا منتشر بكثرة في هذه البلدان؟

ترجم لي جابرو إجابتها:

- لأنه اسم لطيف. ثم إن هذا هو اسمي في العمل، أما في الجامعة فلي اسم آخر.

- ماذا تدرسين؟

- الحقوق.

وأضاف جابرو ضاحكاً:

- لأنها تدرس الحقوق فإنها لا تبخس حق أحد. وتعطي كل شيء حقَّه. ها قد جاء الشواء. كلوا جيداً، وإلا (نظر إلى ناتاشا) لن تستطيعوا الصمود أمام هذه الفرس الرهوان!

أخذنا جابرو، بعد تناول الطعام، إلى منزله. وحين سار بي وبناتاشا إلى غرفة النوم، ضحك ضحكةً خفيفة:

- تفضل، ها قد فتحت أمامك أبواب الجنة...

فعلاً، لم تكن ناتاشا تعطي المرء فرصة الالتفات أو التنفس. تعمل بإتقان واضح وبأستذة. بدأت بخلع الملابس، وتحولتْ إلى كتلة من الشهوة؛ بلسانها وأصابعها وشعرها وحتى نهديها.. تحولتُ إلى طفل مسلوب الإرادة في أحضان أنثى دب ناعمة. تداعب الدبة هذا الطفل الغر وتلاعبه كما تشاء. كانت للدنيا في تلك اللحظات نكهة مختلفة. وفي الغرفة الأخرى كانت تسمع حشرجات رمو مع صديقة ناتاشا. أعادنا جابرو إلى البيت وسط شعور بالانتصار، وشعور مَن قام بأداء واجب كبير تجاهنا. هذه الحادثة جعلتنا نصمت قرابة شهر أمام فيصل. رأس السنة يقترب وأنا لا أزال في هذه البلاد التي لا يذوب فيها الثلج. أخذتني الأفكار إلى ما حدث في آذار الماضي، حيث اعتقل ناسنا جماعات وأسراباً. أطلق

سراح بعضهم ونُقل الآخرون إلى السجون. يبدو أن الجراد قد سَدّ كل السبل أمام الناس. وأن التحول إلى الجراد صار منهجاً تنتهجه الدولة، حتى رضي به الناس. علمتُ من رمو أن أحد المرضى المصابين بالسرطان، وبرفقته زوجته وأولاده الثلاثة، ينتظر هو الآخر هنا. يتساقط شعره يوماً بعد يوم. يود الوصول إلى أوروبا للعلاج. وقد أهملنا فيصل وانشغل بالصيد مع الصياد وبرو. كان معتداً بنتائج عمله:

- يجب أن يكون العمل هذه السنة أفضل من كل السنوات السابقة. يجب أن يذهب المرء إلى أوروبا مليونيراً، وليس بجيب خاو. فالجيب -وأينما كان- صديقُ صاحبه الوحيدُ. والجيب الخاوي يخذل صاحبه أينما كان. ومن هذه الناحية لا فرق بين المدن حيث تتساوى قامشلو، موسكو، برلين، أمستردام وستوكهولم..

الجيب هو ما يشغل فيصل بحيث أصبح له الهم والشغل الشاغل، أما أنا فمن ناحيتي لم يكن الجيب هماً، وإنما همي هو التخلص من هذا الخوف الذي يأكل أضلاعي؛ أن ألتقي سايكس وجهاً لوجه لأفضي له بهموم القلب. ما علمته مؤخراً من فيصل هو أنه لا يستطيع الحصول على فيزا أية دولة أوروبية على أساس هذا الجواز. فقدت الأمل، لكن فيصل بدأ البحث عن وسيلة أخرى، وكان واثقاً من العثور عليها. وحين انتهت مدة صلاحية الفيزا ولم يعد بالإمكان تجديدها -سابقاً حين كان البوليس يوقفنا ويقول لي إن الفيزا مزورة، كان فيصل يقول إنما عيونهم على الرشوة، فهم يظنون أن كل غريب نبع من الدولارات، عشرات المرات تشاجر معهم فيصل بسببي- أصبح خروجي من الدار خطراً، وكذلك رمو. يسير وضعنا، مع مرور الوقت، نحو الأسوأ. أما الأسوأ والأصعب هو أن البرد تسلل إلى تلك البثرة في مؤخرتي، وازداد الألم والوجع. مرةً أخرى تملكني الخوف من أن تطول وتتحول إلى ذيل. حينها ماذا سيحصل يا تُرى إذا ما تجول بين

هؤلاء البشر المتشابهين، ووسط هذا الثلج، لو تجول بينهم إنسان ذو ذيل؟

- لا سمح الله.

ولكنْ، كنت دوماً أتحمل آلامي وأوجاعي وحيداً. جاء فيصل وأنا على تلك الحال، ألبسني بدلة سوداء وقميصاً وقال لي:

- ستلعب اليوم دور تاجر طيور. أنت قادم من الخليج، من إحدى الدول العربية لترى الطيور إن كانت من النوع الجيد أم لا. وستهز برأسك علامة عدم الرضا بمعنى «لا»، وستقول بالعربية بأنها لم تعجبك.

شعرت أنها لعبة مسلية، وقد أنسى فيها همومي بعض الوقت. ذهبنا إلى أحد المنازل. تحدث شابان إلى فيصل بالروسية؛ أحدهما روسي والآخر قرغيزي، ثم ساروا بنا إلى حيث الطيور. ثلاثة طيور جميلة، وكان الدور المرسوم لي سهلاً. لم تعجبني الطيور. وفي طريق العودة سألت فيصل:

- لم تقل لي، ما هو قصدك من كل هذا؟

- كان القصد مشاهدة الطيور. ولولا هذه العملية لما تركونا نشاهدها. لو كانت من النوع الجيد لاشتريتها وأخذتها إلى الإمارات.

في البيت كان الصياد يشكو من أنه -ورغم مرور عدة أشهر- لم يعثر على صيد ثمين، وأن محاولاتهم ذهبت سدى.

حين تحدث إليه فيصل حول الذهاب إلى النساء، أجاب بغضب وانفعال:

- لم أرتكب الزنا يوماً، ولن أفعل.

استمرت حالة الانفعال يومين مع الصياد. في اليوم الثالث طلب من فيصل أن يأخذنا إلى «الساونا». هناك باستثناء غرف الاستحمام والدوش، غرف صغيرة مخصصة لممارسة الجنس مع النساء. حين اصطفت النساء

الجميلات أمامنا، أشار الصياد الحاج قبلنا بإصبعه إلى إحداهن وقال:

- هذه تناسبني....

وحين علم أن بإمكانه اختيار أكثر من واحدة، راح الحاج يقول بين اللحظة واللحظة:

- لا، هذه أفضل. بل هذه أفضل..

في ذلك المساء كان الحاج يخرج من غرفة ليدخل أخرى. كعطشان عثر على ينابيع من الماء، واحتار إلى أي نبع يتجه، إلى أية امرأة. وبعد أن تهالك، قال:

- ليتني كنت شاباً مثلكم. ولكن، لا فائدة. اللعنة على الشيخوخة!

في البيت لم يفارق السجادة تلك الليلة حتى الصباح، رافعاً يديه بالدعاء، وكرر أكثر من ألف مرة:

- اللهم اعفُ عني، اللهم اغفر لي!..

وفي صباح اليوم التالي خرج الحاج إلى الصيد دون أن ينام الليل. ولكن بعد أيام طلب الحاج الذهاب مرةً أخرى إلى «الساونا». همس فيصل:

- قسما بالله سيهلكنا الحاج بطلبه الذهاب إلى الساونا كل يوم.

بقي الحاج مشغولاً بالذهاب إلى الصيد وإلى الساونا، وبالصلاة.

كل شخص هناك مشغول بنفسه، أما أنا فبقيت أسير البيت. في الوطن كانت الممنوعات قد شلّت العقل والروح، وفي بلد الثلج هذا فمنع الإقامة، وعدم الحق في البقاء... وضعت نصب عيني كل شيء وخرجت، ولكن لا أحد ينشغل بالآخر هنا، فقط أعاني من السير على الثلج المكسو بالصقيع. الناس يتجولون بالثياب والقبعات القفقاسية، لا أحد يسأل الآخر عن مكان قدومه، ولا عن وجهته. في طريق العودة سمعت صوت تكسر

الثلج تحت وطأة قدمين ثقيلتين. قلت في سري: «أهو رجل من البوليس يعلم أنني ممنوع من الإقامة هنا وجاء يتعقبني، أم أنه رجل مثلي عائد إلى بيته؟». أبطأت في مسيري، أبطأ هو الآخر، أسرعتُ، فأسرع. بقي عليّ أن أنعطف في عدة شوارع لأتأكد إن كان يتعقبني أم لا. دخلت زقاقاً ضيقاً، لم أعد أسمع صوت خطواته. مع خروجي من الزقاق عادت الخطوات تسمع خلفي. شعرت بغلطتي، وهي أن دخول الأزقة خطر، فقد يكون لصاً قاتلاً، حينها سيقتلني دون أن يراه أحد، وسيهرب! أسرعت وفجأةً أبطأت في المسير، وقلت في سري سأخدعه ليتجاوزني وإلا سأمسك بتلابيبه بكلتا يدي. يبدو أنه لا ينوي أن يتجاوزني. انتظرت صوته أو الضربة التي سيوجهها إلي. أصابتني رعشة؛ لم يصدر عنه أي صوت سوى صوت تكسّر الثلج. قررت أن ألتفت إليه قبل أن أنال ضربته، لأمسكه وأرميه على الثلج. حين شعرت بأنفاسه الحارة تلامس رقبتي أدركت ألا يفصلني عنه سوى خطوة واحدة، فجأةً التفتّ إلى الوراء وَ..... وجدت عينين صفراوتين تحت قبعة قفقاسية في مواجهة عينيّ المندهشتين، والملامح كانت أيضاً غير ظاهرة، فقد غطى عنقه وحتى ما تحت عينيه بمنديل أسود. حين مددت يدي إلى المنديل الأسود أمسك يدي بقوة، وبيده الخشبية ضرب يدي وغادر. لم يهرب ذو العينين الصفراوتين، إنما ترك لي يده وأدار ظهره وراح الثلج يتكسر تحت قدميه. كانت هذه هزيمةً أخرى من هزائمي؛ فبدلاً من أن أزيل اللثام عن وجهه وأكشفه، ترك لي يداً مزورةً ورحل. عدت إلى البيت. جلست على هذه البثرة الغدارة، تسلل خوف بارد إلى كياني، وكأن كل ثلوج هذا البلد الأبيض تذوب وتجري في سواقي روحي. تجمد دمي، رأسي وقلبي. بقيت أرتعش إلى وقت متأخر من تلك الليلة، رعشة لا يراها أحد، رعشة الخوف من كل شيء. الخوف من الأيام والسنوات التي مضت، من الحاضر ومن غد. لكن هذه المرة جلب لي الصباح معه بشارة. جلب لي فيصل تلك البدلة السوداء والقميص، ولم يكن من أجل

الطيور، بل من أجل الذهاب إلى أوروبا. بدأ يشرح لي الخطة:

- سندخل كازاخستان. في المطار ستحمل هذه الحقيبة الدبلوماسية، ابتسمْ بين الفينة والفينة بكبرياء، ولا ترتبك. هناك امرأة ستعبر بك كل الأبواب كدبلوماسي كبير إلى أن تصل إلى الطائرة. في مطار برلين، ومع نزولك من الطائرة عليك التخلص من جواز سفرك؛ مزقها وارمها في المرحاض. بعدها سلم نفسك للبوليس.

سيطر عليّ الخوف والارتباك:

- كيف سأعبر حدود كازاخستان دون فيزا؟!

- ذاك عملي. المهم هو أن تتخلص من الجواز، وقتها اعلم أن الأمور انتهت وأنك قد وصلت، وإلا فإنهم سيقبضون عليك ويعيدونك إلى هنا، لأننا حجزنا لك الترانزيت. تمام؟

- تمام.

نطقت هذا بلساني، ولكن كيف سأمشي في هذا السفر المزور إلى النهاية! وأذهب بنفسي إلى البوليس الذي يأتي إليّ منذ ثلاثين سنةً وأنا أهرب منه وأتوارى؟ أطفأتُ براكين الخوف والأسئلة في داخلي. اطمأن فيصل إلى أن كل شيء سيسير على ما يرام:

- وصل المئات بهذه الطريقة. بعضهم لا يعرفون كتابة أسمائهم ووصلوا دون أدنى صعوبة، أما أنت؟ لا تخف يا صاحبي! غداً ستدعو لي.

كنت واقفاً مع فيصل وسط المسافرين حين أقبلتْ، امرأة في حوالي الخامسة والخمسين، ترتدي معطفاً طويلاً. نظرت إلى بدلتي وإلى حقيبتي الدبلوماسية. تحادثت؛ هي وفيصل. ودعتُ فيصل وتبعتها. للتأكد من التذاكر وأوراق السفر عبرنا أربعة أبواب. أوصلتني المرأة بأمان إلى غرفة الانتظار. هناك دلتني على الأبواب التي ستفتح أمامي. ودّعتني هي

الأخرى وغادرت. حتى تلك اللحظة لم أصدق أن كل ما جرى حقيقة، ظننته حلماً من أحلام يقظتي تلك. ولكن، لا. فها هي الطائرة تعلو وبعد ساعات سأصل إلى أوروبا المفتوحة الحدود؛ موطن سايكس بيكو، موطن الحقوق، موطن الأحلام العرجاء التي تنتظر.

تاريخ الخوف (٤)

الفصل الأخير من مخطوطة غير مكتملة كُتِبت عن حياة لم تكتمل.

أوروبا تسير نحو الشيخوخة.

لأن تاريخي نفسه هو تاريخ الخوف، فقد أطلقت هذه التسمية على كتاباتي. لم أعد أدرك، أنحن من جلب الخوف إلى الحياة، أم أنه هو من أوجدنا ورعانا في أحضانه. وقد تثبت الأبحاث والدراسات أن تاريخ أي إنسان يكون على هذا المنوال. الزواج هو أساس استمرارية البشرية، وسبب الزواج أساساً هو الخوف؛ الخوف من العزلة، الخوف من الموت دون ترك أي أثر أو إرث، الخوف من الشيخوخة والعجز، الخوف من المجتمع المكشر عن أنيابه، الخوف من الخالق، الخوف من وحدة الجسد والروح، الخوف من الحرية.. أما أنا، فالخوف، وقبل كل ما ذكرت، من الزواج نفسه هو ما يجعلني أعزف عن الزواج... حين سار بنا المُهرِّب وسط هذه البحار لم يكن يعلم أنني أخاف من الماء أيضاً. في طفولتي كانت هناك بركة ماء في حوشنا، والكل كان يسبح في تلك البركة. مرةً وحيدةً تجرأت وجلست على جدار البركة، لا أعرف كيف ابتلعني الماء، هرع إليّ الجيران وأخرجوني نصف مختنق. منذ ذلك اليوم والماء -عدا عن ماء الشرب- يبعث في داخلي خوفاً مجهولاً. حين جمعَنا تجارُ البشر في الباخرة، ارتخت ركبتاي، قد تكون رؤية تلك المياه كافيةً لتكون السبب في موتي، دون أن تصاب الباخرة بأي عطل أو حريق! دخلت في الزحام وتحركتُ بين المهاجرين وكأن ما تحتنا يابسة، وليس ماء. ومع ذلك لم توصلنا الباخرة إلى نهاية الرحلة، لأنه وبعد السفر في الماء، واجهتنا رحلة أقسى، فقد كان علينا أن نقطع الحدود سيراً

على الأقدام، وجدنا البوليس وكلاب الشم قد سدوا الحدود. لقد كان قدري أن يكون أحدُ رجالِ البوليس أوّلَ أوروبي أراه. في المعتقل طلبت حق اللجوء السياسي. فنقلوني، مع عدة أشخاص آخرين، إلى شرق ألمانيا، إلى مدينة هالدنزليبن "Haldensleben"، حيث معسكر اللاجئين القريب منها. لم يكن في القرية، وإنما خارجها. كان اللاجئون يقولون فيما بينهم إن هذا المعسكر من مخلفات الجنود النازيين. بعد الاستماع إلى إفادتي، عرفت من القدماء أن الجواب يتأخر سنوات. إذا كان الجواب بالرفض فإن الإقامة في المعسكر تمتد سنوات. يبدو من إجاباتهم أنهم لم يصدقوا شيئاً مما قلته، ومن الضروري أن أنتظر دعوةَ المحكمةِ الثانيةَ. في تلك الأثناء تحدثت مديرة المعسكر في أمر تعليم اللغة الألمانية. يجب أن يأتي مدرس إلى المعسكر لإعطاء الدروس. المعسكر مكون من ثلاثة طوابق. المسؤولون في الطابق الأرضي. خصصوا غرفةً إلى جانبهم لغرض التعليم. في اليوم الأول جاءت معلمة، اسمها آنيت، تجاوزت الثلاثين من العمر، شعرها أشقر قصير، وجهها أبيض ضارب إلى الحمرة وهذا ما أضفى جمالاً خاصاً إلى عينيها المائلتين إلى الخضرة. كان عددنا في اليوم الأول ستةً ممن يرغبون في تعلّم اللغة، وما إن وصلنا إلى اليوم الأخير من الأسبوع حتى وجدت نفسي وحيداً، لذا قويت علاقتي أكثر من الآخرين مع المعلمة آنيت. سرّت حين وجدتني أقبل على الدروس بجدية ولدي رغبة كبيرة في التعلم، إضافة إلى أنها غضبت بسبب عدم إقبال اللاجئين على الدروس، ولم تفهم السبب. اضطرت آنيت إلى التحدث إلى المسؤولين في المعسكر وإيقاف الدروس. لكنها سهلت لي الأمور وأبقت كل الطرق مفتوحةً أمام استمرارية علاقتي معها. لأن «إنكليزيتها» أيضاً كانت سيئةً مثل «إنكليزيتي»، فقد كنا نفهم بعضنا بشكل جيد. عرفت شيئين: الأول أنها تقيم في مدينة قريبة، وأعطتني رقم تلفونها.

والثاني أنها ستساعدني حتى النهاية لأتعلم اللغة. أعطيتها أيضاً رقم

تلفوني المحمول، وشكرتها. واعتقدت أن هذه المرة الأخيرة التي أرى فيها هذه المرأة البسيطة، العفوية، والإنسانة. انقضى أسبوعان، وبينما أنا مشغول برسم صورة شخصية لآنيت، تلفنت لي، يبدو أن «القلوب عند بعضها». هذه أول صورة شخصية لامرأة أرسمها. وحتى أنجز عملي أخرْتُ موعد اللقاء أسبوعاً. سرتُ باتجاه مدينتها يوم السبت. بدت آنيت شخصاً آخر، بدت أكثر بساطة بتخليها عن إتيكيت التعليم. أخذتني إلى مقهى مريح دون أن تسأل عن اللوحة في يدي. عرفت عنها أشياء كثيرة. لكنها حين تحدثت عن الدور الكبير الذي لعبه كلبها المدلل «توني» في ملء الفراغ الذي كانت تشعر به في حياتها، شعرت برعشة تتسلل إلى جسدي...

تذكرت، دفعةً واحدة، كل الكلاب التي قطعنا أذيالها...

السؤال الذي رغبت في طرحه في تلك اللحظة كان:

- أيملك توني ذيلاً أم لا؟!

لكنني التزمت الصمت. وحين أزلت ورق الجريدة عن اللوحة، وقدمت لها الهدية، فتحت عينيها على اتساعهما مندهشةً وسألتني:

- لا تقل لي أنك من رسم البورتريه؟

- نعم، أنا من رسمَ.

- إذاً أنت فنان. أنت رسام؟

- منذ الصغر وأنا أتسلى بالألوان.

كانت تلك الهديةُ الخيطَ الأول في علاقة معقدة متشابكة. حاولت جاهداً التخلص من تلك المشاعر الغريبة، لكنني لم أستطع. فقد كنت أشعر أنني ضيف ثقيل على هذا البلد. وكلما نزلت إلى الشوارع المكتظة بالناس تضاعف هذا الشعور وتحول إلى ألم. أرى نظرات الازدراء في عيونهم،

فأشعر بالدونية. أجد نفسي قزماً، أسود، ومهموماً وسط أمواج هؤلاء البيض السعداء.

أشعر بوجهي ناشفاً مصفرّاً كليمونة معصورة، وبأن قدومي إلى هذا البلد قد ألحق بمواطنيه ضرراً كبيراً، وكأنني أدخلتُ معي إلى هذا البلد النظيف والحديث والعامر حملاً ثقيلاً من الهموم والآلام والمصائب، وأعداداً هائلة من تنانير[*] الروح المهدمة. أهل هذا البلد ينظرون إلى الغرباء أمثالي والابتسامة على محياهم، وإن لم تكن هذه الابتسامة صادقة. تبدو نظرات الدهشة حتى في عيون أطفالهم تجاهنا –نحن المغضوب عليهم-، إنهم لا يعرفون سبباً لمجيء هؤلاء الذين لا يشبهون آباءهم وأمهاتهم وأصدقاءهم وجيرانهم إلى هذه البلدان.

ذلك من حقهم، وأنا مذنب لا حول له.

حاولت أن أجمع بوساطة الألوان ما بين السعادة الطافحة في وجوههم، وبين الانهيار والانكسار في داخلي، لكنني فشلت وذبلت، فقد كانت الكلاب والحمير مقطوعة الأذيال، والألوان الكئيبة واليائسة تنسكب، دون إرادتي، على القماش الأبيض المعد لرسم اللوحة. كنت أرغب أن أزين لوحاتي بعفوية وجرأة نساء هذا البلد، فأجد عوضاً عنها أجساداً مهزومةً ضعيفةً خائفة. كيف سأشرح لآتيت هذه المشاعر؟ إنها تحاول أن تجعلني أحب هذه التراجيديا التي نعيشها:

- في العصر النازي ضاق هذا البلد على اليهود، الآن اجتزنا ذلك العصر وتركناه خلفنا. لكن، في تلك الدول التي اقتسمتكم فيما بينها، مازال العصر

النازي مستمراً. أعلم أنهم قد جعلوا وطنكم يضيق بكم. هذه الأرض واسعة وتكفينا جميعاً. تستطيع أن تعيش هنا كفنان يحظى بالتقدير.

---

*) جمع تنور، تنور الخبز.

في البداية كان أملها كبيراً بأنني سأتلاءم معهم في وقت قصير، وسأتخلص سريعاً من هذه العقدة الشرقية -كما يسمونها- لكن مخلفات آثار التدمير التي تعفنت في عقلي وروحي عشرات السنين، لم تكن تسمح لبناء آمال آنيت أن يرتفع. منذ أن دخلتُ بيتها أول مرة، واستقبلني كلبها بنباح خفيف، أدركت كم هو صعب تأقلمنا معاً. كيف تستطيع التحول من عداوة لا معنى لها مع الكلاب إلى العيش مع كلب في بيت واحد! كلب آنيت أشقر أزغب الشعر، يشبه القطط، يقترب كإنسان من البشر، لا يشارك آنيت إلا في السكن؛ فله طعامه الخاص، وكذلك الشراب والشامبو والمرحاض. أكثر ما لفت انتباهي هو أوراقه وبطاقته الشخصية. ت وني مرتاح البال، لا يُشغِل دماغه بشيء، لا جواز سفر مزور، ولا اللجوء، ولا الهم ولا الغم. منذ اليوم الأول خطرت على بالي هذه الجملة التي أضحكت آنيت كثيراً:

- أحسد توني على وضعه، ليتني مثله!

في الأيام الأولى بدت لي آنيت كبركة ماء، يستطيع المرء اكتشاف أعماقها بسهولة، وكذلك ضفافها، لكن الزمن أظهر لي أنها بحر كبير، كلما سبح فيه المرء شعر بعمقه واتساعه. منذ صغرها انفصل والدها عن أمها، وهو يعيش الآن بعيداً عنها مع امرأة أخرى في بلدة على حدود فرنسا. وانقطعت علاقة آنيت به منذ أكثر من عشر سنوات. والدتها تعيش مع زوجها الجديد. وبسبب علاقات آنيت مع الأجانب قطعت والدتها علاقتها بها. شرحت علاقتها بوالدتها بعبارة مختصرة:

- أمي عنصرية، إنها ضد الأجانب.

حين كانت تروي قصتها مع والدتها، تضحك حيناً ويبدو عليها الأسى حيناً. ازدادت علاقتها مع الأجانب بسبب مهنتها في تعليم اللغة، وصار معظم معارفها من الأجانب، وبشكل خاص من الكرد والفلسطينيين والتاميل،

فكانت تتحدث دائماً عن الظلم الذي تتعرض له شعوبهم:

- هؤلاء، الحرب قائمة في بلدانهم، والحرب تجبر الناس على الفرار، يجب أن تشكل هذه الشعوب دولها المستقلة. الجنرالات في هذه البلدان لا ترتوي من الدماء...

استطاعت أن تؤمن -إلى الآن- الإقامة لثلاثة من الأجانب، عن طريق الزواج. كان آخرهم كردياً من (الشمال)؛ أصيب أثناء قتاله في إحدى المعارك حيث كان يخوض حرب الأنصار مع رفاقه في الجبال، واستطاع الوصول إلى أوروبا حيّاً، ومع ذلك رُفِض طلبه كلاجئ، لذا كان هناك خوف من أن يسلموه للبوليس التركي. لذلك تزوجته آنيت شكلياً على الورق. يجب أن تمضي ثلاث سنوات كي يستطيعا الطلاق بشكل رسمي. تجاربها الأليمة، كهذه، مع اللاجئين لا تحصى. معظم هؤلاء، إن لم تقُلْ جميعهم، وبعد أن تسير أمورهم بشكل سليم، يضيعون في حياة هذه البلدان، ويديرون ظهورهم لكل شيء، ولا يسألون عمّن قضى لهم حاجاتهم. صعب حين يشعر المرء بأنه صار مجرد محطة استراحة، أو وسيلةً لقضاء حاجة هذا وذاك، إنه نوع من الغدر وعدم الوفاء. من خلال هذه العلاقات الحارة سارت علاقتي بآنيت نحو علاقة يومية. في أحد الأيام أخذت توني إلى غرفة أخرى، أغلقت عليه الباب وعادت إليّ:

- قل لي بصراحة يا قادو، لِمَ تكره توني؟

لأن سؤالها فاجأني، لم أعرف بمَ أجيب:

- هناك الكثير من الناس لا يحبون الحيوانات.

- لكن توني مختلف.

- صحيح. بالتأكيد إنه يسليك أحياناً.

- نعم، ولكن بإمكان دفء بعض الناس أيضاً أن يجعل المرء ينسى كل شيء.

مع قولها هذا أمسكت يدي، وثبّتت عينين وحشيتين في عينيّ. كانت مرهفة الشعور، تشعر مثلي بعطش في الروح. صارت آنيت بالنسبة لي بحراً، فتحت لي، منذ اللحظة، كل أبوابها. آنيت التي كانت إلى الآن بالنسبة لي شخصاً قريباً، لها أفكارها وآراؤها، صارت أنثى؛ أنثى دافئة تستطيع أن تغرق شخصاً مثلي، خائفاً، غريباً، وحيداً، في أمواج أنوثتها. قضيت تلك الليلة عندها. وفي صباح اليوم التالي استيقظت على صوت التلفون. كان صالح على الخط؛ أقلقه عدم عودتي إلى الكامب، وخشي أن يكون مكروه ما قد أصابني. طمأنتُه ووعدته أن أعود مساء. صالح ابن الخمسين عاماً، هو أقدم شخص من بين هؤلاء اللاجئين في هذا المكان. صالح رجل من عامودا، يتحرك وكأنه قدم البارحة منها. قضى أكثر من عشر سنوات في هذا الكامب دون أن يحصل على حق الإقامة. يمنحون الشخص المهيّأ للعودة إلى بلده ورقة باسم «دلدنغ». وحسب أقوال صالح فقد احتار في أمره حتى البوليس، لأنهم لا يعرفون من أين جاء. وأنهم ينتظرون وثيقةً ليحجزوا له الطائرة إلى بلده.. وها قد مرت عشرة أعوام دون أن يحصلوا على تلك الوثيقة. ولسوء الوضع الصحي لزوجته منحوها وولديها بيتاً مؤلفاً من غرفتين. المؤسسات المعنية طردت ولديه من المدرسة، لأنه لا يحق لهم إتمام الدراسة. لقد طلق زوجته ويعيش الآن وحيداً، يملك سيارة، ويشتغل في نقل اللاجئين أول الشهر إلى المدينة وإعادتهم. كان على كل لاجئ أن يأتي مرةً في الشهر ليوقع ويستلم راتبه ويعود إلى عمله الأسود؛ اللاقانوني. كانوا يصرفون رواتبهم كأجرة نقل، ويتنقلون بشكل مخالف. لأن القانون يمنع الخروج لأكثر من ثلاثين كيلومتراً، فإن البوليس أينما ضبطهم

يعيدهم ويحكم عليهم بالغرامة. كان صالح سَبّاباً، سريع الغضب، لكنه كان طيباً وحسن المعاشرة. في الفترة الأخيرة صار يحمل معه مسدساً في أثناء تنقله، وضعه هذا ذكّرني بوضع هاربٍ خائف، له أعداء يريدون

الثأر منه. لم أجد في كل ألمانيا مدنياً، ماعدا صالح، يحمل مسدساً. كان يلعب ورق الشدة مع جيرانه العرب، الفيتناميين، الأفريقيين والألبان، وأحياناً يلعب القمار أيضاً. كان حديثه أثناء اللعب عن تجارة الحشيش والكوكائين، هذه التجارة التي يمارسها بضعة أشخاص في ذاك الكامب. وأحياناً كان يعلو صياح اللاعبين إلى درجة أن يشهر صالح المسدس في وجوههم. أخافتني حاله هذه.

- إنك تغضب بسرعة يا صالح. أخاف أن تقتل أحداً ذات يوم. ما هذا المسدس الذي تحمله؟!

- لا تخف عليّ. هذا فقط للدفاع عن النفس. إني أعاشر امرأةً كوسوفية، القريبون منها لا يكترثون، أما كرد (العراق) والعرب لا يستسيغون ذلك! أليس هذا غريباً؟!

- ولِمَ؟

- يعتبرونها مسألة شرف، ويقولون إنهم لا يريدون حدوث مثل هذه الأعمال داخل الكامب. أخبرتهم بأنني بقيت وحيداً دون زوجة، فإما أن يزوجني أحدهم زوجته، أو يجدوا لي زوجة، وإما يتركوني وحالي...

- وماذا قالوا؟

- أعرف غايتهم. هذه المرأة لا ترغب فيهم، لذا لا يريدون رؤيتها معي.

قد يوجد من لا يحب صالح، لكنه معروف من قبل الجميع. عشرات المرات نقل المرضى بسيارته؛ نساءً، رجالاً، وأطفالاً إلى الأطباء. وله فضل على معظمهم. يشعر المرء بالفراغ الذي يشكله غياب صالح عن الكامب. كاد يطير فرحاً حين ذهبت إليه مساء، وأخبرته أنني وآنيت صرنا أصدقاء، ونصحني ألا أخبر أحداً حتى لا يشوا بي ويفسدوا هذه العلاقة بيني وبين آنيت، وقال غاضباً:

- لا أعلم لم يحمل ناسنا كل هذا الحسد والحقد، ولا يريدون الخير لأحد!..

تحدث إليّ مطولاً عن السنوات العشر التي قضاها هنا. حقيقةً كان قد خاف عليّ ليلة البارحة، وأخبرني عن المنطقة المحيطة بالكامب؛ يسود هنا جو من العنصرية ومعاداة الأجانب، وبشكل خاص بين الشباب والفتيات اليافعين منهم. أخبرني عن العديد من الشجارات التي افتعلوها، وعن سرعة سياراتهم الجنونية حول الكامب، والزمامير المقصودة. كما تحدث إليّ عن قتلهم أحد الإفريقيين، ورميهم أحد الفيتناميين من القطار، وعن رفعهم الإصبع الوسطى للأجانب من أمثالنا، وهذه إشارة معروفة هنا بدلالاتها السيئة جداً. نصحني ألا أتجول وحيداً أبداً، وبشكل خاص في المحطة المركزية أو في الشوارع. من حديثه استنتجت أنه يعيش خوفاً كبيراً، وأدركت سبب حمله المسدس، مع أن عقوبة حمله كبيرة جداً. يبدو أنه قرأ تأثير كلماته على ملامحي:

- لا أقول هذا كي أخيفك. فقط أردت أن أحيطك علماً. فأنا أكبر منك سناً من جهة، وأقدم منك هنا من جهة أخرى.

يعقّب صالح بحكاية على كل حديث له مع الآخرين، وكأنه في أحد مجالس عامودا. حتى الألمان الذي تعرف إليهم، يشبِّه كلاً منهم بإحدى شخصيات عامودا؛ الشخصيات التي قضى نصف عمره معها. تنطلق من بين شفتيه الألقاب بعفوية وبساطة:

- توماس، هذا الذي يجلس في الشارع، يعزف على الغيتار متسولاً، إنه تماماً كأوسي شارو، وفيليب زوج المسؤولة عن هذا الكامب فيشبه صوفي كندورو. أما بريجيت الموظفة –التي تدفع رواتب اللاجئين الشهرية- لا تختلف شعرة عن زكو المرسنية، بيدها المغلولة وبخلها، وكأنها تدفع هذه الرواتب من جيب زوجها.

حتى آنيت لم تسلم من سخريته:

- هذه المرأة تظنها «حسينة»، تهتم بك كل هذا الاهتمام، واختارتك من بين كل هؤلاء الرجال، شبيهي الدببة، في هذا الكامب.

وحين كان يرغب في السؤال عن آنيت، يقول:

- كيف حال حسينة؟

الشيء المشترك بين آنيت وحسينة هو أنا، وإلا فلا شيء تشتركان فيه. ومع مرور الزمن، ودون أن أشعر صار مكوثي عند آنيت يطول. ودون أن أخبرها عن تحسسي من كلبها كانت تأخذ الكلب إلى غرفة الجلوس، ونبقى في غرفة النوم. كان تنام قبلي دائماً، وتستيقظ قبلي كذلك.

ذات ليلة، كالكثير من سابقاتها، جافاني النوم. كدت أصرخ مع الصرخة التي صدرت عن آنيت النائمة. صرخت فجأةً وارتمت في حضني، ومعها انطلقت كلمة «nein»(لا) برعب شديد، من بين شفتيها المرتعشتين. أرعبني رعبها وهي نائمة. حاولت إيقاظها، لكن صراخها استمر. أجبرتها على الاستيقاظ. أشعلت المصباح وجلبت لها كأس ماء. سألتها:

- ما هذا الكابوس؟

بعد صمت قصير، شربت الماء ووجهها مصفرّ.

- إنه يتكرر كل بضعة أيام.

- منذ متى؟

- منذ زمن بعيد. هناك الكثير من الأشياء التي لم أخبرك بها بعد.

- أتمنى أن تخبريني بكل شيء.

- لا. أخشى أن أصغر في عينيك.

- أنت مخطئة. الصراحة هي السبب في قوة الرجل والمرأة.

- نظرية جميلة، لكن يمكن أن يكون العكس صحيحاً.

مع أن آنيت كانت تحاول دوماً إخفاء تلك الحقائق بداخلها، لكن الزمن فتح كل السبل أمام تلك الحقائق المرة. حاولت الانتحار ثلاث مرات. راجعت طبيباً نفسياً فترةً طويلة، علّها تشفى من مرضها الذي يعجز الطب عن إيجاد دواء له، لكن دون جدوى. قالت بحيرة شديدة:

- أسأل نفسي كثيراً: لماذا أعيش؟ حياتي وموتي سواء. الحياة لا شيء، لا طعم لها ولا معنى. إنها بالنسبة لي خداع للنفس. أشعر أن الموت وحده يستطيع منح الإنسان الراحة. يكون الموت أحياناً الحل الوحيد.

كانت تتحدث مطولاً عن أبيها –عديم القلب- هكذا تسميه:

- ربما يحاول أن ينساني، أو أنه لا يصدق أنني ابنته، أو قد يكون مشغولاً بزوجته.

ومن ناحية أخرى كانت تتحدث بغضب عن أمها:

- أمي عنصرية.

سدت أمها كل الطرق أمامها، ووضعت لها هذا الشرط:

- لستُ أمك إن لم تقطعي علاقتك بهؤلاء الأجانب ذوي الشعر الأسود. إما أنا وإما هم...

كل هذا في كفة، ورعب تلك الليلة في الكفة الأخرى. عليّ أن أعترف أن هذه الحادثة قد رفعت جدران الخوف بيني وبين آنيت. ماعدا أن هذه الحادثة قلبت كياني رأساً على عقب، صرت أرى في منامي كل ليلة، أن توني يكبر، ينتفخ، تطول مخالبه وتزداد حدة، يطاردني والدماء تغطي فمه، يلف ذيله على عنقي ويخنقني. كنت أهرب منه، أدخل شوارع واسعة وأخرى ضيقة ومسدودة. أكسر الأبواب وأدخل منزلاً مغلقاً، أغلق الباب

بالمفتاح لأنجو من أنيابه المكشرة التي تسيل منها الدماء. توني يضرب الباب، يطقطق الخشب ومع صرخة عوائه ينفتح الباب، يهجم الكلب الأشبه بالضبع، يغرز أنيابه في عنقي. وفي غمرة ذلك الصراع أستيقظ وأفكر في قطع ذيل كلب آنيت هذا. كنت أخاف منها من جهة، ومن جهة أخرى من كلبها الذي يستطيع أن يحول حلمي هذا إلى حقيقة. لم نكن أنا وآنيت وحدنا في هذا البيت، كان يسكن معنا شخص آخر اسمه الخوف.

لا يمكن إمساك السراب باليدين

لا يشبه الخوف شيئاً، كما يشبه السرطان.

حين يمتزج الخوف بدماء الناس لا يمكن العثور على دواء.

إذا كانت أسباب هذا المرض معروفةً ويمكن فهمها من قِبَل ناسنا، لكنها غير مفهومة لدي فيما يتعلق بآنيت. إني أتعجب من شكل الخوف لديها، لم تعد الحياة تعني لها شيئاً، إنها تشعر أن الأشياء كلها فقدت طعمها، لونها، ورائحتها. في محاولتها الأخيرة للانتحار أنقذتها جارتها. بابا منزليهما متقابلان، جارتها امرأة شيباء الشعر، ترتعش وتترنح في مشيتها، لكنها محبوبة، تهتم بنظافتها. كانت آنيت تتحدث مطولاً عن الحادثة. لقد دخلت جارتها على صوت نباح توني، فوجدت آنيت تحتضر وبجانبها علبة حبوب فارغة. أسرعت الجارة إلى نقلها إلى المشفى بسيارة. أجروا لها عملية غسيل المعدة، فاستعادت صحتها شيئاً فشيئاً. كلما رأت العجوز قالت لي:

- هذه هي العجوز التي أعادتني إلى الحياة.

توفي زوج العجوز، وابنتها قد تزوجت بشاب من أمريكا اللاتينية، ورافقته إلى هناك. الحادثة الأخيرة التي هزت كيان آنيت كانت وفاة هذه العجوز؛ حيث بقيت ميتة ثلاثة أيام في بيتها دون أن يشعر بموتها أحد. هذا الموت الصامت قد آلَمَ آنيت:

- لقد أسرعت إليّ خلال دقائق، أما أنا فبعد أيام سمعت من الناس خبر موتها!

تذكرت جرحها العميق:

- لا أظن أن موتي سيكون أفضل من موتها.

الشيء الآخر الذي كان يؤلمها هو البحث عن عمل. لم تستطع تأمين عمل دائم لها:

- هل تعلم أن العاطل عن العمل منبوذ في هذا البلد.

بسبب كثرة عدد مدرسي اللغة، لم يكن عملها -إذا ما لقيت عملاً- يدوم أكثر من أشهر. لذا كانت معظم الأحيان عاطلةً عن العمل؛ تخفف من شراء الطعام في الأيام الأخيرة من الشهر كي تحافظ على ما تبقى من نقود معها. كانت ترغب في السفر إلى بعض أنحاء العالم، ترغب في شراء الكتب الجديدة، تغيير أثاث بيتها... لكنها لا تقدر. كلما وجدت رسالةً في صندوق بريدها انتابتها كآبة، وملأت الدموع عينيها قائلة:

- مئة بالمئة، أنا مطالَبَة بدفع النقود.

فاتورة التلفون، الغاز، الكهرباء، التلفزيون، أجرة البيت، الماء، الإنترنت..... وأحياناً كانت تقف أمام المرآة وتتحدث عن الشيخوخة تخيفها فوضى التجاعيد المنتشرة في وجهها:

- أُسِرّ لك ما بقلبي، إلى الآن لا أدري لمَ أعيش. هل تعلم أنني قبل التعرف إليك، حاولت الانتحار مراراً، وأحياناً كان الدافع إلى عدم ترك توني وحيداً يردني.

منذ أن تركتها أمها والشعور بالوحدة والعزلة يكبر في داخلها، لذلك فقد كانت الكآبة تسيطر عليها أحياناً دون أي سبب، وتغرق في بكاء مُرّ. كانت مثل قنبلة على وشك الانفجار. وكانت لوحاتي تزيد في إيقاظ هذه المشاعر لديها، فتقول أحياناً وهي تضحك:

- إذا ما ذهبت إلى الموت، سيكون السبب هذه المرة، هذه الحيوانات المقطوعة الأذيال في لوحاتك.

كانت اللوحات تنقر الموتى المساكين الراقدين في ذاكرتها. من جهة كانت تعاتبني على هذه التراجيديا في لوحاتي، ومن جهة أخرى هي نفسها تعيش حياةً تراجيدية. وفي منتصف الليالي ترفع تلك التراجيديات رؤوسها لتتحول إلى كوابيس مخيفة. ذلك الكابوس في منتصف تلك الليلة جعلني أفضل العودة إلى الكامب، لقد اشتقت إلى صالح وحكاياته. وضعه يسير نحو الأسوأ. علاوة على ذلك فقد سُرِقتْ سيارته، ولأن السيارة لم تكن مسجلةً باسمه، فقد رفع الدعوى باسم الشخص المسجّل باسمه السيارة. في تلك الأثناء كان صالح يفكر بالعودة إلى عامودا، لكنه يخشى من أن يعتقل، ويتشرد أولاده. رغم الحياة القاسية التي كانوا يعيشونها، فإن الأولاد ما كانوا راغبين في العودة إلى الوطن.

في ذلك اليوم أيقظني صالح من النوم بصياحه، وهو يحمل إليّ رسالة. طلب مني أن أذهب إلى آنيت لتقرأ الرسالة، وتعلمني برد المؤسسة المسؤولة عن اللاجئين. سلمني الرسالة قائلاً:

- خذها، فقدرك مكتوب في هذه الورقة. أظن أن آنيت قد حَسَّنَت لغتك الألمانية.

حقيقة، كانت آنيت تهتم كثيراً بتعليمي اللغة؛ فقد كانت تتحدث إليّ ببطء من جهة، ومن جهة أخرى كانت تصحح لي أخطائي.

انطلقت مسرعاً إلى مدينة آنيت. مع دخولي البيت ارتفع نباح توني. أخذت آنيت الكلب إلى غرفة أخرى وعادت إليّ بسرعة:

- عسى خيراً! أراك منقطع الأنفاس؟

وضعت الرسالة مباشرةً في يدها وانتظرت جوابها. من ملامحها استنتجت أن الرسالة لا تحمل أية بشائر خير. صمتت برهة، وطلبت مني الجلوس دون أن تتكلم. فهمت هي الأخرى أنني عرفت الجواب دون أن تنطق به. قالت لي بصوت خافت:

- يجب أن ترفع اعتراضاً إلى المحكمة عن طريق المحامي، خلال خمسة عشر يوماً.

- وإن لم أفعل ماذا سيحدث؟

- يجب أن تغادر ألمانيا خلال فترة خمسة عشر يوماً.

- حسن، هذا ما سأفعله.

- ماذا قلت؟

- هذا قرار لا رجعة فيه. لم يعد يناسبني هذا البلد.

مع كلماتي هذه تجمعت الدموع في عيني آنيت، أمسكت رأسها بيديها وبكت بصوت عال:

- سأعيش، ثانيةً، وحيدة.

كل منا مشغول بمخاوفه؛ آنيت تخاف الوحدة، وأنا أخاف استمرارية البقاء غير القانوني. لا أظن أن أحداً له وطن –يحمل بطاقة شخصية وجواز سفر- يشعر بما أشعر به الآن من مشاعر تغلي في داخلي. في هذا البلد ناس من كل الجنسيات ومن كل أصقاع الدنيا. كنت أقول دوماً لنفسي، هنا من يصادفه أي عائق، أو تعترضه ضائقة ما، فإنه سيتجه إلى قنصلية أو سفارة بلده، أما إذا أصابني –أنا- مكروه، وقُدِّر علي، فإلى أين سأتجه؟ وضعت آنيت كل الحلول أمامي، أحد تلك الحلول هو أنها مع فترة انقضاء زواجها الشكلي ستوقع عقد الزواج معي، وسيكون بإمكاني البقاء. والحل الآخر هو أن أنتظر نتيجة المحاكمة الثالثة بعد تقديم الاعتراض. وكانت كلما سمعت ردي، ازداد غضبها:

- سأبحث عن وطن يفتح لي صدره ولا يرفض طلب إقامتي.

تحاول آنيت بشتى الوسائل أن ترجعني عن قراري:

- هذا حلم. أنّي ذهبت ضمن البلدان الأربعة عشر من دول «شنغن»

فإنهم سيعيدونك إلى هنا. بين هذه الدول معاهدة مشتركة.

إنها تقول الصدق، ولكن قراري لا رجعة عنه.

بدأت أعد أيامي هناك، وكأن كل أبنية هذا البلد ستتحطم فوق رأسي خلال خمسة عشر يوماً. أين ستكون وجهتي، وماذا ينتظرني؟ لا أعرف. أفكر في شيء واحد؛ هو أن أترك هذا البلد الذي لا يقبلني. أحببت أن أقنع آنيت بأنني حتى لو بقيت هنا فلا يمكن أن نستمر في العيش معاً، لكنني لم أرغب في أن أزيد حِمْلَها ثقلاً. كانت آخر محاولاتها أنها أعلمتني فجأةً بهذا الخبر شديد الوقع:

- أنا حامل.

لم أصدقها بداية، لكن بدت المسألة صحيحةً وليست قصةً مفتعلة، وجاء ردي واضحاً:

- أنت المسؤولة عن هذا القرار أحادي الجانب. أنا ذاهب.

تركت لها صورتها فقط، وأخذت ما تبقى من لوحاتي ووضعتها عند صالح، لأن ألواني وخطوطي كانت تزيدها همّاً، ولم أرغب في أن أزيد سبباً إلى أسباب كآبتها. لو كان شخص آخر مكاني ربما استطاع الاستمرار في صداقته مع آنيت، والبقاء هنا، شرط ألا يكون مثلي، وألا يكون خارجاً من قلب الخوف، وألا يكون قد كبر وسط أمواج الخوف. قدري هو أن نتقابل -أنا والخوف- كعدوين طالت عداوتهما؛ عدوين لم يعودا راغبَيْن في قتل بعضهما، لأن العداوة أيضاً كالحب، فقدت معناها. كنت أظن أن لهذا الخوف نهاية، ولكني كنت مخطئاً، ها هو الخوف يرميني من أمام باب مغلق إلى باب آخر. صار العالم كله بالنسبة لي سجناً، وسيبقى سجناً إلى الأبد.

لم أستطع -رغم محاولاتي العديدة- أن أُفهِم آنيت بعض الأشياء.

العتمة، الاعتقال، الدمار، القتل، الدم، والصرخات العالية كانت تخرجها من جلدها، مقابل استعمال هذه الألوان كان هناك مَن يُذَكِّر المرء بهؤلاء الذين يجلبون الخراب والظلام. كانت دوماً تقول:

- ألا يوجد عندكم غير التراجيديا؟ إن ألوانك هذه تذكر المرء بموت مأساوي، إضافةً إلى أنها تبعث على التقيؤ والاشمئزاز. غطيتم عيناً بيدكم، وبعين واحدة فقط تنظرون إلى العالم...

ربما يكون كل ما قالته صحيحاً، أو أكون أنا مريضاً وليس بمقدوري التخلص من هذه المأساة. وآنيت أيضاً تطلب مني رسم الورود واستعمال الألوان المتفائلة من ناحية، ومن ناحية أخرى لا تستطيع أن تتحرر من الكوابيس والصراخ في منتصف الليل.

شيء وحيد كان مشتركاً بيني وبين آنيت..

الخوف.

قلب يطير دون جناح.. و..عشه قد أضاعه.

تجاذبتني الأفكار في الطائرة. بدا لي الركاب كالملائكة، وكذلك الفتيات الباسمات بقاماتهن العالية اللواتي يدرن علينا بالطعام والشراب. لا تساورني رغبة لا في الطعام ولا في الشراب، أريد فقط أن أضع قدمي على أرض خالية من المخابرات. مع بداية هبوط الطائرة سيطر عليّ شعور غريب. كيف ستمضي عليّ الساعات القليلة العصيبة القادمة، والتي ستفتح أمامي أبواب عالم جديد؟ إني قلق ومحتار. حين نزل الركاب واحداً إثر آخر، كل في دوره، تبعتهم. الشيئان الهامان والضروريان اللذان شغلا تفكيري كانا؛ التخلص من جواز السفر، والذهاب إلى البوليس. المطار كبير، نظيف، وكأنه قد لُمِّعَ للتوّ. تجولت في المطار أكثر من نصف ساعة. كان أشبه بسوق مدينة منه إلى مطار. كانت أرتال الناس تذهب وتجيء في حركة غير اعتيادية. ها إني أنظر في عيون الناس، وكأنني أراهم للمرة الأولى، أدقق في وجوههم وفي حركاتهم. ولكن لا أحد يبالي بي. كنت خائفاً من ناحية، ومن ناحية أخرى كنت مطمئناً إلى أن لا أحد يتتبعني. لكنّ ألماً حاداً انبعث من تلك البثرة. ابتهلت إلى الله ألا يُنبت لي اليوم ذيلاً، وأن أذهب إلى البوليس دون ذيل، كي لا يخافوا، ويعلموا أني إنسان. ازداد الألم. كدت أصرخ. وجدت حلاً، وهو أن أذهب إلى مقهى وأتلمس مؤخرتي لأتأكد من الوضع. كان فيصل قد أعطاني بعضاً من نقود هذا البلد يكفيني كمصروف عدة أيام. حين وضعت فنجان القهوة على الطاولة وجلست على الكرسي، شعرت بألم حاد، ومع ذلك انتابني شعور غريب

بالفرح لأنّ ذيلاً لم يتجمع تحتي وأنا أجلس. مددت يدي اليمنى خلسةً إلى خلفي، لمست أصابعي تلك البقعة الحمراء، ضغطتها قليلاً، وبراحة تامة، أصدرت تنهيدةً من الأعماق. شكرت الله في أعماقي على أنه لم يحول البثرة إلى ذيل حتى الآن! تذكرت ما قاله فيصل:

- إذا اعتقلت والجواز معك، فمن الممكن إعادتك. أما إذا تخلصت منه فقد أنقذت نفسك، وبقيتَ هناك.

انتقل تفكيري مباشرةً إلى جواز سفري، وكأني أحمل قنبلةً على وشك الانفجار. نهضت وشيء واحد يشغل تفكيري؛ دخول المرحاض. بحثت قرابة ساعة دون أن أستدل على مكانه، أو أعثر على هذين الحرفين الذهبيين: WC. لا أعلم إن كان الاضطراب سبباً في عدم رؤيتي إياه، أم أنه الحماس. عدت إلى المقهى وسألت أحد العاملين، وكي يفهمني نطقت فقط كلمة «تواليت». أشار العامل بإصبعه إلى الجهة التي فيها المرحاض، أسرعت إلى تلك الجهة، وكأنني أقوم بعملية اختلاس، إلى أن وصلت وأغلقت الباب كان جسمي قد تبلل بعرق حار. لم يكن للمرحاض سقف، وكذلك كان الباب مرتفعاً قليلاً عن الأرض. وقفت أدقق في الأعلى والأسفل، لا أعرف كيف خطر لي أن تكون هنا كاميرات مراقبة خفية. ستفشل محاولاتي، وستذهب كل الجهود التي بذلتها في سبيل تأمين حياتي المستقبلية هباء. كان هناك في الخارج وقع أقدام. أخرجت الجواز من جيبي، لا أدري لماذا تسلقت رعشة خلايا جسدي! بان من تحت الباب قدمان بحذاء أسود. سعلت كي أُشعرَه بوجودي في الداخل، بقيت القدمان في مكانهما. طرقت الباب من الداخل كي يبتعد، لكن فردتي الحذاء لم تتحركا. انحنيت ونظرت من تحت الباب إلى بنطاله، انتابتني رعشة خوف، عرفت أنه الملثم ذو العينين الصفراوتين. قلت في نفسي إن الوقت قد حان لأجرجره إلى هذا المرحاض الفارغ، وأزيح اللثام عن وجهه، وأعرفه،

ثم أغرق رأسه في هذا الماء الوسخ. تصبب عرَقي أكثر. أعدت الجواز إلى جيبي. وحضّرت نفسي لعراك شديد. مددت يدي في صمت إلى الباب، وفتحته بهدوء. وبكل قوتي هاجمت صاحب الحذاء الأسود، كدت أقع على وجهي، لم يكن هناك أحد، بقيت يداي معلقتين في الهواء. جففت عرقي بكُمِّ قميصي وعدت إلى المرحاض. أخرجت الجواز ومزقته مزقاً ورميت به إلى الحوض، كان بعض أوراقه من النايلون، خشيت ألا تبتلعه المياه. انتابتني مشاعر نادرة لم أعشها من قبل. كاد قلبي يطير فرحاً حين تخلصت من ذلك الجواز المزور، وقبل أن أفتح صنبور الماء وأسكبه على مزق الجواز امتدت يدي إلى أزرار البنطلون، وبسعادة بالغة بُلْتُ على الجواز الممزق. سكبت عليه الماء. ومع خفقان قلبي كان الماء يبتلع أشلاء الجواز. في تلك الأثناء كان قلبي يقول:

- إذاً، لا عودة إلى بلاد الخوف.

مع هذه الكلمات فتحتُ الباب وخرجت. أمسك الخوف بتلابيبي مرةً أخرى. منذ اليوم الذي وعيت فيه وأنا أتجنب البوليس ورجال المخابرات، واليوم مطلوب مني أن أبحث عن البوليس وأسلمهم نفسي! كنت أنظر بحسد إلى هؤلاء الذين يتجهون إلى باب الخروج فرحين، يضعون جوازاتهم في أيدي بوليس التدقيق، ويخرجون. تمنيت لو تنشقّ الأرض وتبتلعني لأخرج من الطرف الآخر. فجأةً تذكرت سيف توتنو الخشبي، تخيلت أنني أمتطي حصاناً أبيض،

وبسيف توتنو أمزق صفوف الناس، وأتجه إلى البوليس والحراس، لم أترك شخصاً يعترض طريقي، كل يهرب إلى جهة، إلى أن وصلت إلى الباب، رقَّ قلبي لحالهم. تركت حصاني الأبيض عند الباب، ومددت يدي أقدم لهم السيجارة، كي يغفروا لي اعتدائي. لكنْ لم يطل حلم اليقظة هذا، فأنا ذلك الغريب الخائف، الهارب من وطنه، يبحث الآن في مطار غريب عن

البوليس ليستسلم لهم ويخرجوه من هذا المطار كلاجئ مهزوم. تمنيت لو أغمض عينيّ وأفتحهما لأرى جناحين نبتا لي، وتحولت إلى طائر لأطير فوق الناس والبوليس، وأرمي بنفسي في أحضان الحرية. أملأ صدري من هواء الحرية، ثم فليأت الموت متى شاء. لكن هذه الحدود لا تسمح بذلك، أعادت إلى ذاكرتي حدود سَرْخَتْ وبِنْخَتْ ثانية.

الحدود المحكومة بالألغام والبوليس.

الحدود المحروسة، العصيّة...

الحراس الذين يضعون أختامهم على الأوراق الخرساء، وينظرون بعين الشك إلى كل من يريد أن يعبر الحدود. الأمم، الدول، الشعوب، أشكال البشر وألوانهم تتغير وتختلف من مكان إلى آخر، إلا أنظمة وقوانين الحدود فهي ثابتة في كل الأمكنة لا تتغير. تمنيت في تلك اللحظة لو تحول ذلك المطار إلى بحيرة ماء، إلى بحر، وتحولتُ أنا إلى سمكة رشيقة تغوص في أعماق المياه دون أن يسأل أحد عن جواز السفر، أو الفيزا والأختام التي تقلق حياة البشر. مع تلك الأمنية تغلغل وجع كبير إلى مؤخرتي، كنت قد نسيت بثرتي، لا أعرف لمَ أحببت تلك البقعة الحمراء في تلك اللحظة، وتمنيت من كل قلبي لو تحوَّلَتْ إلى ذيل.

أحياناً، يفضل المرء أن يكون كلباً أو أي حيوان!

قد يستطيع الكلب أن يمر من بين أقدام المسافرين وكأنه كلب أحدهم ويخرج معه من الباب دون أن يوقفه أحد. أخيراً انتبهت إلى أن الوقت يمر، وأن لا فائدة من هذه التخيلات التي يمكن أن تضر بالمشاعر. شاهدتُ شرطياً؛ عثرت على فريستي، وتبعتها كي لا أفقد أثرها. فعلتُ ما طلب مني فيصل فعْلَه. تقدمت من الشرطي وقلت له مضطراً:

- *نو باسبورت...*

نظر إليّ وكأنه يقول في سره «مرّ عليّ الكثير من أمثالك». سألني إن كنت أعرف الإنكليزية أم لا؟ فهم أني أفهم وإن كان قليلاً. أخذني إلى الأمام، أراني باباً مفتوحاً وطلب مني أن أذهب إليه. لقد تجمّع خلق كثير أمام الباب. أدهشني ذهاب الشرطي، ظننت أنه سيكبلني، وسيغضب ويأخذني إلى مسؤوله، لكنْ لم يحدث شيء من هذا!. لم يبالِ الشرطي بذلك العرق المتصبب مني، كما لم يكن عدم وجود الجواز حادثة ملفتة للنظر بالنسبة إليه. اقتربت من الباب. ملامح هؤلاء تدل على أن معظمهم أفريقيون، أفغان، وفيتناميون. أدركت أنهم مثلي قد قدموا يطلبون اللجوء. لم يكتفِ الشرطي هناك بـ «نو باسبورت». وحين أجبت عن سؤاله بأنني كردي، تابع مباشرةً:

- Turkei, Irak, Syrian, Iran?

عرفت أنه مطلع على الواقع الكردي، وهذا ما أراحني قليلاً. سجل اسمي وطلب إليّ أن أقف مع هؤلاء المتجمعين. حيرني أمر هؤلاء، فقد كان بينهم نساء وأطفال وشيوخ. وقفت جانباً بانتظار شيء لا أعلم ما هو! طالت اللحظات وكأنها أيام. جاء شرطيان، ودون أن يتكلما قادانا. في الساحة الخلفية من المطار فصلونا عن بعضنا. طلب إليّ أحدهم أن أدخل غرفة. لم يكن في الغرفة سوى كرسي. دخل شاب ذو شعر أشقر وعينين زرقاوتين، يرتدي لباس البوليس. أشار إليّ بالأيدي وبإنكليزية مفككة إلى ضرورة أن أخلع ملابسي. ارتدى هو الآخر قفازات نايلون رقيقة ودقق في حقيبتي. كلما خلعت قطعةً بحث

في جيوبها وأخرج ما فيها. لم يبق على جسمي سوى السروال الداخلي، طلب أن أخلعه أيضاً. خجلتُ ولم أفهم ضرورة خلع السروال. هذه هي المرة الأولى التي أقف فيها عارياً تماماً أمام رجل. في تلك اللحظة مرّت في خيالي غرفِ المخابرات، ولكن لا أذكر أن أحدهم قد عراني بهذا الشكل. مشاعر شتى، مزيج من المرارة والخجل والانهزام، تسللت إلى أعماق

قلبي. شعرت بنفسي مجرماً كبيراً، متهماً لا حول له ولا قوة. في النهاية أردت أن أعطي ذلك الشاب، المرتدي قفازاتِ، الحقَّ لأني دخلت بلاده بطريقة لا شرعية. ومع ذلك لم تفارقني لحظات الانكسار والفشل، تلك اللحظات التي وقفت فيها عارياً بين يديه. فقد تخمرت تلك المشاعر في أعماق روحي. معها، صارت تلك الفكرة التي كانت تدور في رأسي؛ الوصول إلى هذا البلد انتصار كبير، موضع شك كبير. إني أختنق وسط عرق فشل أعمى. سار بي الشاب ليلتها إلى غرفة فيها سريران، رتّبا على شكل طابقين. وسلّموا كلاً منا شرشفاً نظيفاً. نمنا –أنا وثلاثة من الأفارقة- في تلك الغرفة. وفي اليوم التالي أحضروا لنا أوتوباصاً كبيراً ونقلونا إلى مكان بعيد. وقفنا أمام بناء قديم من ثلاثة طوابق. صوّرونا واحداً واحداً، إضافة إلى أنهم غمسوا أصابعنا في الحبر وتركوا آثارها على أوراقهم البيضاء، وسجلوا الاسم والمعلومات الأخرى في سجلاتهم، ثم أرسلوا كل شخصين إلى غرفة. هذه المرة كان معي في الغرفة كردي أتى معنا في الأوتوباص. اسم شريكي في الغرفة جمشيد. سلّموا كلاًّ منا مفتاحاً، وفراشاً وشرشفاً وصعدنا إلى غرفتنا. أدركت أنني الآن في ألمانيا، وأن الحياة في معسكر اللاجئين قد بدأت. الغرف في كل طابق متتالية، خصصت كل غرفة إما لعائلة أو لشخصين، الحمام مشترك، وكذلك المطبخ والمرحاض. اتجهت مباشرة إلى الحمام، كان الدوش الأول معطلاً، وقفت تحت دوش آخر وتعريت تحت الماء الساخن، لأتخلص من أوساخ وغبار الوطن. كما أن عرق الحدود القرغيزية الكازاخية، وكذلك عرق المرحاض في المطار الذي عصيت فيه، وحتى آثار قفازات الشرطي الشاب، وصولاً إلى الحبر على أناملي كلها بحاجة إلى ماء ساخن وصاف ينظفني منها. شريكي في الغرفة كان قد خرج، أغلقت الباب من الداخل وجلست. غطيت رأسي باللحاف، وبكل ما وهبني الله من قوة بكيت. انتابتني نوبة بكاء غاضب دون أن أعرف السبب.

القلب يشبه ذبابة عمياء، أما نحن فنشبه أعداءنا.

بعد استقراري في المعسكر الأول، تذكرت مباشرةً ما هو مطلوب مني. تلفنت لكلا الفيصلين، كما أعلمت أهلي بأنني وصلت إلى ألمانيا. يجب أن يحصل فيصل على نقوده، وتلفنت لسمكو أيضاً ولكنه لم يكن موجوداً، ولم ترغب أمه أن تخبرني بموعد عودته. أحببت أن أتكلم مع أهل قادو، أخبرتني أمه ألا

علم لديهم عنه، وأنهم عاتبون عليه، وطلبت إليّ أن أبحث عنه هنا.

حين رجعت إلى الغرفة سلمتني المسؤولة عن المعسكر رسالةً وأخبرتني عدة أشياء. فهمت منها أن مقابلتي القاضيَ قريبةٌ، ويجب أن أقدم إفادتي في الأسبوع القادم. نظرت إلى الورقة المفتوحة، لفت الرقم ٢٣٥ انتباهي وأعادني إلى الوراء. أخبرني جمشيد ذو التجربة أن القضاة هنا يحملون أرقاماً ولا أحد يعرف أسماءهم، وتابع بقلب كسير:

- إنك مثلي، سيء الحظ.

- ولماذا؟

- لأنه ليس في هذه المنطقة أسوأ من هذا القاضي. إنه لا يمنح أحداً حق اللجوء، وبالأخص إذا كنتَ كردياً.

- وهل مسألة منح الحق متعلقة بشخص ما؟

- نعم. هو مَن سيمنح أو يرفض. وإذا ما رفض، عليك أن تنتظر سنوات للمثول أمامه للمرة الثانية.

تقدم جمشيد منذ سنوات بطلب حق اللجوء، ولأن طلبه رفض، فقد عاد، وتقدم الآن باسم آخر.

- مسألة اللجوء مسألة حظ، إن رفض سأعود ثانية، أو سأجد من يقبل بزواج شكلي.

لذا كان جمشيد يتحدث الألمانية قليلاً، وكان شبه مترجم للاجئين في الكامب. لكن لم يخطر على باله أبداً ما يزرعه فيَّ الرقم ٢٣٥ من ذعر وخوف. رغبت في أن أصرّح له بأن رقم هذا القاضي كرقم فرع الاستخبارات العسكرية، لكني كنت أعلم أنه سيأخذ هذا القدَر الأسود على سبيل الطرفة والدعابة، لذا لم أخبره. وكان هذا رقم قاضيه أيضاً، لذا كان يائساً مهموماً؛ ينتظر فقط تقديم إفادته وبعدها سيذهب إلى مدينة قريبة، يعمل مع ابن عمه في بيع الشاورما. يتحدث كثيراً عن ابن عمه والنجاح الذي حققه، حيث جعل من محل لبيع الشاورما إلى خمسة محلات خلال سنتين. ومنذ الآن يغادر الكامب ويذهب إلى ابن عمه، لذا أبقى معظم الأحيان وحيداً في الغرفة. نهاراً أقضي وقتي مع صخب اللاجئين، وضوضائهم، وفي الليل، ما إن أغمض عيني حتى أعود إلى الوطن. في تلك الليلة استيقظت مرعوباً مرةً أخرى، كنت أطير وأتمسك بقطعة حديد مربعة الشكل، وشيئاً فشيئاً يضيق الحديد على عنقي. ينفلت الحديد من يدي وأبقى معلّقاً، وأهوي إلى الأرض من جهة، ومن جهة أخرى يكاد الحديد يخنقني. وحين جفلت واستيقظت شربت الماء وقلت لنفسي:

الحمد لله على أن جمشيد لم يكن هنا، ولم يرني على هذه الحال.

كلما نزلت إلى المدينة تناهى إلى أذني صوت:

- الآن وصل سايكس من إنكلترا، أو بيكو من فرنسا، وستتقابلان.

لكن لم يكن هناك شيء من هذا القبيل. لا ينظر الناس هنا في عيون

بعضهم، وكأنهم لا يرون أحداً، مشغولون بأنفسهم ولا يبالون بالنار في أحشائنا. يقفون دائماً بعيدين عنا. لا عيونهم ولا شفاههم تقول شيئاً، ليس لديهم أي فضول، وكأن الشبع ملأ أعينهم من كل شيء، وليسوا بحاجة إلى سماع أي جديد.

لا يهمهم، مَن أنت، ومن أين أتيت؟

كنت أشعر أن معظم أهالي هذا البلد فاقدو المشاعر تجاه الآخر، لا يظهرون محبتهم لك، ولا معنى لوجودك بينهم. تذكرت كالو أكثر من أي كان، وأكثر الأشياء تذكُّراً كانت قصصه، يبدو لي شيخاً من عصر آخر. ينظر المرء إلى الأشياء - عن بعد- نظرةً مختلفة، وكذلك دروس التاريخ تلك التي كنت أدرسها لطلابي تبدو وكأنها أساطير قديمة من مئات السنين.

أتأسف على أبنائنا البعيدين هؤلاء الذي تمْلأ رؤوسهم بالقصص التافهة. في هذا البلد كل شيء جديد، نقي، وعامر. وما هو قديم ومهترئ هو داخلي فقط. وهذا ما يُدخل ألماً رطباً إلى روحي الظمأى. يتجمع ذلك الألم ويتكوّم على بعضه في داخلي، ويتحول إلى ذئب مقيَّد. كان ذلك اليوم، كما أخبروني عنه، يومَ بيانِ قَدَري. عرّفني المترجم على نفسه بلغة كردية سلسة واصطحبني معه إلى القاضي الجالس مقابل جهاز كومبيوتر، جلس المترجم بيني وبينه، وبدأ التحقيق. حين كنت أعطي جواباً كان القاضي يتحدث، بعد الترجمة، إلى الكومبيوتر، يبدو أنه يسجل كلماته. ذلك القاضي الذي مازال اسمه عندي ٢٣٥،

كان طويلاً، أزرق العينين. تبيّن ملامحه شيئاً قاسياً وغير مريح. بعد أن أخبرته أني لست متزوجاً سألني إن كان لديّ أولاد. وحين قلت للمترجم، إن كان يسخر مني، قال ضاحكاً:

- لا. كثير من النا س هنا غير متزوجين، وعندهم أولاد.

الشيء الآخر الذي أدهشني؛ حين سألني عن البلد الذي قدمت منه، وكان جوابي أنني قادم من كردستان، القسم المرتبط بسوريا، كرر سؤاله مرات:

- أنت، من أين؟ لا توجد دولة أو وطن بهذا الاسم. ما هي هويتك؟ تركية، سورية، إيرانية، أم عراقية؟

لا شك أن قضية الهوية هي التي بعثرتنا في هذه البلدان.

طلبت من المترجم أن يسأله إن كان على علم باتفاقية سايكس بيكو وتقسيم وطننا. كان جوابه أنه على علم باتفاقية لوزان أيضاً، ويعلم أن الكرد يعيشون على عدة حدود، كما يعلم عدد الأحزاب الكردية أيضاً. لا أعرف كيف خطر لي أن سايكس أو بيكو كانا على هيئة هذا القاضي. وما بين أسئلة التحقيق وأجوبتها والترجمة تهيأ لي أن سايكس دخل الغرفة وجلس يستمع. في الاستراحة تقابلنا –أنا وسايكس- مرةً أخرى:

- يبدو أن أصدقاءك الأوروبيين قد نسوك؟!

أجاب دون انزعاج:

- إنني بالنسبة لهم عبارة عن عدة خطوط من تاريخ قديم وبعيد. قد أكون بالنسبة لكم شيئاً كبيراً، كنت فقط ممثلاً لدولتي لديكم. طبعاً الفرق بينكم وبينهم هو هذا؛ هم يفكرون وينشغلون بالمستقبل، بالأيام والسنين القادمة، أما أنتم فمشغولون بالمعاهدات والاتفاقيات التي مرت عليها عشرات ومئات السنين.

- أليس اليوم استمرار للأمس؟

- نعم. ولكنك ما زلت أسير البارحة، أسير الأمس. والفرق كبير جداً بين البحث وبين البقاء أسيراً.

- التاريخ ضروري، وأنا مدرس مادة التاريخ.

- في كل مكان يوجد مدرسو مادة التاريخ، لكنهم لا يعيشون مع شخصيات تاريخهم في منامهم كل ليلة.

- كانت لكم –الأوروبيين- يد في وضعنا اليوم، يجب ألا تقفزوا فوق هذه الحقيقة.

- أوروبا اليوم ليست أوروبا البارحة.

- لكنها استمرارية البارحة.

- أحفادنا لا يفكرون مثلنا، كما أنهم لا يعيشون عصرنا.

- الحديث معك عبارة عن دوران في حلقة مفرغة..

- حياتكم نفسُها هي الدوران في حلقة مفرغة. لقد شلّكم الخوف، لذا ترمون بأسباب إهمالكم وكسلكم علينا. الخوف هو قاتل الحقيقة الأساسي.

- وأمثالك هم من سقوا ذلك الخوف. فجَّرْتم ينابيعكم في أرض الخوف وأدرتم ظهوركم لنا وغادرتم. جئتُ لكشف الحساب معك، الحساب!

اختفى سايكس مع ارتفاع صوت المترجم، الذي طلب متابعة التحقيق. حفلة الأسئلة والأجوبة هذه دامت ست ساعات. صرحت عن أشياء، ونسيت أشياء، كما لم أرغب في قول أشياء. دون أن يوقع القاضي سيؤجل الرد بضعة شهور، لكنْ وعدني أن يكون الرد قريباً. كانت الأيام التي تلت حفلة الأسئلة والأجوبة تلك تحرقني في نار البقاء في انتظار الجواب. ولكن قبل أن يأتي الرد كانت المسؤولة عن الكامب قد أعلمتنا قرار نقل الكامب. نقلونا إلى كامب آخر بعيد عن المدينة، وكذلك بعيد عن القرية، وكان عليّ أن أنتظر الرد هناك.

تذكرت طلابي مرةً أخرى.

لقد اشتركتُ في رواية تلك القصص التي علاها الغبار؛ قصص الهزائم الكبيرة والانتصارات الهوائية الشبيهة بسلسلة الأفلام التجارية، إنها قصص مشلولة وبلا معنى. تذكرت ليلى كحلم في ليلة طويلة، تذكرت توتنو وفلسفته، جدي وسلّمَهُ النوراني، ذوبان جبلين من ثلج واللذين يسميان الأب والأم... كالو وقصصه، الأهل والأقارب وسط القلق والضباب، كل هؤلاء يدورون كإعصار في رأسي. لكن أكثر مَنْ تأسفت عليهم هم هؤلاء الصغار الذين ملأتُ رؤوسهم بأبطال من ورق، وبطولات مبنية من كذب. هنا وهناك، أوروبا والوطن، اليوم والبارحة، كلها تتجمع في رأسي وتتحول إلى حطب يابس تلتهمه النيران. هنا أيضاً –كما هناك- نحن سوريون، أتراك، عراقيون، وإيرانيون.. حين نحاول الوقوف في وجه (الأعداء) ومواجهتهم، فإننا نقلدهم. الأكثر وضوحاً هنا هو أننا أعداء لأنفسنا، وهناك نريد أن نزيحهم من طريقنا لنحتل مكانهم ونفعل ما يفعلون. وحين نحلم أن نسمو ونكبر، فلا نصل إلى درجة أعلى من أن نتخذهم قدوةً لنا.

إننا نشبه أعداءنا.

هذه الحقيقة تتعرى هنا في هذه البلدان التي يسودها الهدوء.

يبدو أن الإنسان حين يبتعد عن نفسه قليلاً، يستطيع التعرف إلى نفسه أكثر. لم تختلط في داخلي كل هذه المشاعر المختلفة، وبهذه السرعة، وفي هذا الوقت؟ لا أدري. حتى أنني لم أستطع أن أودع جمشيد عند انتقالي إلى الكامب الجديد لأنه لم يكن موجوداً. تركت له ورقةً أودعه فيها. في المكان الجديد ودون أن أسأل عن أحد التقيت صالح فجأة. بعدها علمت أن صالح يذهب إلى كل قادم جديد، يهتم به، ويحدثه بشفافية عن الحياة هنا. وحين علم أنني وإياه قادمان من منطقة واحدة، أسرع إلي وأبدى استعداده لمساعدتي. وهذا ما أسعدني كثيراً، ولكن ما هزّ أعماقي هو أنه، وفي اليوم الأول، تحدث إليّ عن قادو. قويت علاقتي أكثر بصالح يوماً

بعد يوم. كان هو الآخر يريد معرفة المكان الذي التجأ إليه قادو. ومن بين الأحاديث الطويلة تذكر أن قادو تحدث إليه

عني وعن سمكو، لكنه لم يصدق أبداً أن يجدني، في يوم من الأيام، في هذا البلد، وأن أنام على سرير قادو الضائع. تحدث إليّ صالح عن كل ما يعرفه عن قادو، واقترح أن نزور صديقته آنيت معاً، لاعتقاده أنها قد وضعت مولودها الآن، وأن يكون قادو قد خلّف ولداً. هذا الخبر زاد من رغبتي في رؤية آنيت. كان قد مضى أسبوعان حين طلب إليّ صالح أن أجهز نفسي لزيارة آنيت. استغرق الطريق أقل من ساعة. فتحت لنا الباب والابتسامة على شفتيها. إنها امرأة خفيفة الدم، متناسقة القوام. في كل مكان من بيتها أثر لقادو. يترجم لنا صالح بألمانيته المكسَّرَة. أدهشتني آنيت ثلاث مرات؛ مرةً بمعرفتها كل شيء عني وعن سمكو، حيث سألتني ممازحةً عن سايكس وبيكو. وثانيةً أنها أخبرتني بأسىً شديد أن ابنها وقادو ولِد أعمى، والأخرى حين أرتني مجموعةً من لوحات قادو وكتاباته. سلمتني آنيت مخطوطة «تاريخ الخوف» وقالت:

- هذه لك. ولأنها مكتوبة بلغتكم يجب أن تبقى عندك، أما اللوحات فستبقى عندي.

تبدو آنيت محبطة. أملها في لقاء قادو ضعيف، كما تحدثت عن صعوبة التفاهم. وبعد نقاش طويل عن الفروق بين الثقافات، أنهت حديثها بدعابة:

- بالتأكيد رأسك يابس كرأس رفيقك.

لفت انتباهي كلبُها الصامت بحركاته الخفيفة، وكأنه يعلم أننا ضيوف جدد. تناهى إلى مسامعنا صوت بكاء طفل صغير. كان الأعمى الصغير يحمل ملامح قادو أكثر مما يحمل من ملامح أمه. عدنا، أنا وصالح، إلى الكامب في وقت متأخر. لم يتحدث أحدنا إلى الآخر في طريق العودة،

وكأن كل منا يعلم أن الآخر يفكر عميقاً في عمى ذلك الصغير. في الغرفة قرأت سريعاً تاريخ الخوف لقادو. استغربت للتقارب الشديد بين مشاعرنا وتجاربنا! أعادتني كتابات قادو إلى بلاد الخوف. لم أنم جيداً تلك الليلة. في اليوم التالي خرجت دون هدف معين. مع خروجي سمعت صوت أقدام الرجل الملثم ذي العينين الصفراوين. كنت أختلس النظر إليه بطرف عيني. عيناه غائرتان عميقاً، تُظهِران آثارَ التجاعيد في وجهه. كنت منتبهاً إلى أنه يتبعني حتى وصولي أمام باب الغرفة. فتحتُ الباب، وفجأةً التفتّ إليه وسحبته بكل قواي إلى الداخل. أحكمتُ إغلاق الباب. لم يملك هذه المرة وسيلةً للتخلص من قبضتي. أمسكت تلابيبه بيد، وباليد الأخرى أزحت اللثام عن وجهه. نظرت في وجهه. لم أصدق ما رأيت! ...

كنت أقف مع نفسي وجهاً لوجه!

وجهه وجهي، وعيناه عيناي.

إنه، أنا شخصياً!

ارتختْ ركبتاي، وهويْتُ عند قدميه.

العين الثالثـــة

كان اختفاء موسى المفاجئ قد أربك صالح، وأخذ يحدث نفسه كمن فقد صوابه:

- يا إلهي!.. ما قصة هؤلاء المجانين المهابيل القادمين إلي؟! جاء قادو ورحل. جاء موسى ورحل. لا أعرف لماذا لا يودعونني؟!

استطاع صالح –بوساطة التلفون- أن يسأل أهلَ موسى عنه، لكن لا أحد من العائلة لديه أي خبر عنه، كان جوابهم أنه لم يتلفن لهم منذ فترة طويلة.

في الوطن الذي علاه الغبار، انتشر الجراد في كل مكان. في السماء أسراب الجراد احتلت سماء البلد، وعلى الأرض سمنت الجراد واتخذت هيئة البشر، وتماهى البشر مع الجراد. قرض الجراد ألسنة البشر وآذانهم. عاد مرض الخانوق. أصيب الناس بهذا المرض الجاف القاسي، ولم يملك أغلبهم ثمن الدواء. تبرعم الخوف ونشر فروعه في كل الاتجاهات. لا يعلم أحد مصير الآخر غداً. الكل في انتظار ما سيحدث. لكن، ما هو، وكيف، ومتى سيحدث؟ لا أحد يعلم. قديماً كانوا يقولون عمّن لا يتكلم:

- كأن الجراد أكل لسانه.

والآن، كأن الجراد قد أكل رؤوس ألسنة الجميع. كانت أجوبة سمكو لصالح ملغزةً في التلفون:

- لا علم لي بقادو ولا بموسى. لا علم لي بشيء.

بلع صالح ريقه، وقال متلعثماً:

- لم أرهما منذ فترة، ظننت أنهما عادا إلى هناك.

- ماذا أقول! ها هي عدة جرادات قد حطت على ستارة نافذتنا.

تذكر صالح أنّ مَن في الداخل لا يستطيع التكلم بصراحة مع من في الخارج، أو أن يكتب له. تنطفئ، داخل صالح، تلك الرغبة في العودة شيئاً فشيئاً، تذبل كنبات انقطع عنه الماء، وتخلِّف ألماً حاداً في قلبه، يقول لنفسه:

- يبدو أننا لن نستطيع العودة إلا في تابوت.

لم يكن صالح يعلم أن كثيراً من الناس في هذه البلدان يقرؤون في هذه الأيام أخباراً عن موسى في الصحافة. لقد وجدوه في لندن، يهاجم في الشارع رجلاً أشيب اسمه سايكس. قاوم الرجل واستنجد بالبوليس من جهة، ورفع عليه دعوى قضائية من جهة أخرى. وبعد تحريات البوليس عرفوا أن ألمانيا مكان لجوئه، فأعادوه وسلموه للبوليس الألماني. لِفتت هذه الحادثة انتباه أحد الصحفيين فكتب عن القضية بشكل موسع ونشره. تحدث في المقال عن تدريس موسى مادة التاريخ، كما تطرق إلى معاهدة سايكس بيكو وتأثيرها على بلدان الشرق الأوسط وبشكل خاص تأثيرها على وطن الكرد. كما جاء في المقال ضرورة نقل موسى إلى مشفى الأمراض النفسية. ماعدا التعليقات كانت هناك مقابلة قصيرة مع موسى، أكد فيها موسى أن هذا الرجل الذي قابله هو سايكس بعينه، وأنه جاء إلى لندن للقائه وطلب محاسبته. لم يكن لدى موسى أدنى شك في أن لا علاقة لسايكس الغاضب هذا بذاك الذي وقع المعاهدة. وقف الصحفي عند حالة موسى النفسية، وكتب أنه يعاني من أحلام اليقظة، ومن الممكن أن يلحق الضرر يوماً بنفسه أو بالآخرين، لذا فإنه بحاجة إلى العلاج والحماية.

فجأةً وجد صالح آنيت يوماً أمامه في الكامب. سأل مباشرةً:

- أراكِ هنا؟

كانت آنيت تدفع عربة ابنها الأعمى بيد، وباليد الأخرى تحمل صحيفة. أجابت ضاحكةً:

- أهكذا يستقبل الناس ضيوفهم؟!

فهم صالح أنها قد جاءت تريد رؤيته، وأنها تحمل أخباراً إما عن موسى أو عن قادو. بعد أن شربا القهوة مدت آنيت مباشرةً الصحيفة إلى صالح، وتحدثت عن هذا الصحفي وعما كتبه. أدهشته المفاجأة، ولم يعد يعرف ماذا يريد أن يقول:

- يجب أن يجلبوه إلى هنا.

صمتت آنيت قليلاً:

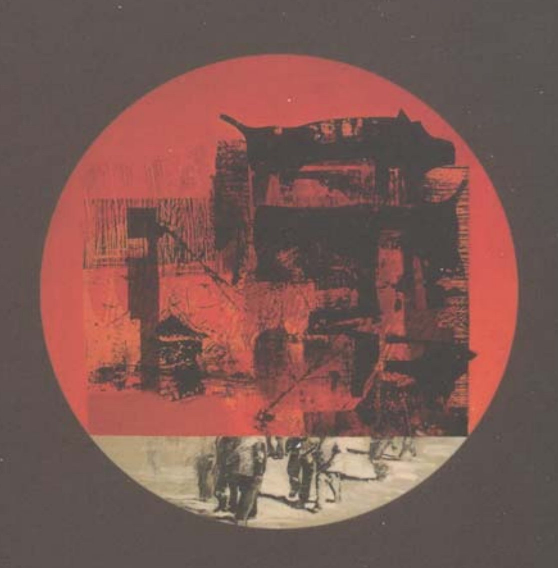
- لا. من الممكن أن يأخذوه إلى مكان آخر، لأنهم تحدثوا عن مشفى الأمراض النفسية.

- ما العمل؟

- يجب أن نسأل عنه.

في تلك اللحظة التي قرر فيها صالح وآنيت البحث عن موسى، كان موسى قد هرب من يد البوليس، ويبحث عن وسيلة «يدبر بها رأسه». إنه إلى الآن يعيش بشكل غير قانوني. لا أريد أن أفصح عن مكان إقامته كي لا أستدل بوليس أية دولة إليه فيعتقلوه. ليس هو وحده، بل قادو أيضاً يعيش باسم آخر في بلد آخر. لقد رسم أكبر لوحة في حياته. اللوحة التي تحمل اسم «الخوف». احتلت اللوحة جداراً كاملاً من غرفته. يجلس قادو تحت ذلك المزيج من الألوان المختلفة، كان منهمكاً في رسم خطوط تتحول إلى صور وألوان الجراد، الجراد الذي سلب، في وطنه البعيد، شجر الحياة وثمرَها، سلب حقول الألفة، وخضرة الحب. في تلك اللحظة كان موسى قد لفَّ ذيله وجلس عليه. الخوف الذي كان بداخله قد تنامى، وازداد

وحشيةً، تحول إلى جرادة جائعة حطت بجانب موسى وبدأت تقضم رأس ذيله. في غرفته كان قد تدلى حبل المشنقة الأسود السميك من النافذة إلى الداخل. هو أيضاً لا يعرف من أين جيء بهذا الحبل إلى غرفته. صار الحبل في هيئة حية سوداء عمياء، التفّت على بعضها، تحولت من فوق رأسه إلى كلمة سوداء،.. إلى خوف.



كان يرغب في أن يشعر أن هذا البلد بلده، في أن يشعر بالألم والأسى كغيره من الذين يهاجرون أوطانهم، لكنه لم يستطع. لم يشعر بأنه وطنه وأنه سيتركه، بل يشعر به قطعة حديد مربعة الشكل تضيق حلقتها على عنقه، وأن هذا اليوم هو يوم الخلاص، يوم الحرية، إضافة إلى ذلك فقد كان الأسى يلوك صدره. انتابه مزيج من مشاعر مختلفة. ضغط عليه البول، إنه يريد أن يدير ظهره لهذا البلد الغريب، وألاّ يعود إليه إلى أبد الآبدين، لكنه قبل هذه الرحلة التي لا عودة بعدها، يريد أن يبول على هذه الأرض مقابل تمثال الرئيس الخالد. لكنه يعود ويناجي نفسه: لكن، ما ذنب هذه الأرض، وما ذنب هذا البلد المسكين أصب عليهما اللعنات؟!





المؤلف حليم يوسف: كاتب سوري من مواليد عامودة، يكتب باللغتين العربية والكردية، درس الحقوق في جامعة حلب، ويعيش منذ العام ٢٠٠٠ في ألمانيا. صدر له حتى الآن الكتب التالية: الرجل الحامل (قصص(١٩٩١ - نساء الطوابق العليا قصص١٩٩٥ - موتى لا ينامون قصص ١٩٩٦، سوبارتو رواية ١٩٩٩، مم بلا زين قصص ٢٠٠٣ خوف بلا أسنان (بالكردية) رواية (٢٠٠٦) - عندما تعطش الأسماك رواية ٢٠٠٨ - آوسلاندر بيك قصص (٢٠١١).

المترجم فواز عبدي: كاتب ومترجم كردي من مدينة القامشلي- سوريا، تخرج من قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، عام ١٩٩٠، عمل مدرساً ومعلماً في مدارس محافظة الحسكة.

صدرت له مجموعة قصصية بالكردية بعنوان (النؤوم) عام ١٩٩٢. ترجم عدداً من الأعمال الأدبية الكردية إلى العربية. عمل في فرقة خلات الكردية ممثلاً ومعداً ومترجماً للنصوص المسرحية. يدير حالياً فرع القامشلي لاتحاد الكتاب الكرد في سوريا.

«إذا صادف أحدُكم الخوفَ يوماً، فليسأله عن مسقط رأسه، أين وُلِد؟

سيجيبكم أنه ولد في المربع الذي يوصل بين سوريا، تركيا، إيران، والعراق.

فليذهب الباحث الذي يرغب في أن يعرف الخوف ويتعرف إليه عن قرب إلى تلك الحدود، حيث ولد الخوف، كبر وشاخَ. لقد ولدتُ في بلاد تشرق الشمس فيها بخوف، كما أنها تنسحب مذعورة باتجاه الغروب. بخوف يتناول الناس فطورهم صباحاً، ليبدؤوا حياتهم اليومية. يخافون من كل شيء ويتعبون. يرتدون ملابسهم بخوف، وفي الليل يسيطر الخوف على أحلامهم فيجفلون مبتعدين عن فراشهم، يشربون بعض الماء، يذكرون الله ويحمدونه على أنّ ما رأوه مجرد أحلام، وينامون بخوف. وحين يستيقظون في اليوم التالي يكون الخوف بانتظارهم.»

إن هذه الرواية لا تتحدث عن بلاد يتحكم الخوف بمفاصل الحياة فيها فحسب، بل عن انهيار هذا الخوف أيضاً، في يوم مسروق من تاريخ أصم، هو الثاني عشر من آذار ألفين وأربعة. ومن خلال تداخل مصائر شخوص يتشابهون في ملامحهم المألوفة ويختلفون في مصائرهم الغريبة.

إنها رواية تتحدث عن بقعة منسية من عالم أعمى، وعن بدء التشقق في جدار الخوف الذي يلف هذا العالم، المطل على تواريخ نجهلها وعلى خرائط جديدة تطل برأسها من بين الألغام. كل ذلك من خلال خيوط تتشابك في نسيج روائي محكم البناء.

دار نون للنشر



ISBN 978-91-87373-38-1
9 789187 373381